

روايات مصر في الحديث

16



سافاري

www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافاري) مصطلح غربي تم تحريفه عن كلمة
(سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن لـ (سافاري)
فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش في أدغال
(إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافاري) التي منقلبها ها هنا كانت
تصطاد المرض في القارة السوداء .. ووسط اضطرابات
سياسية لا تنتهي .. وبيئة معادية .. وأهل متشككين ..
بطلقا الذي منقلبه دوماً ، ونألفه ، ونعظم أن
نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصري
عقل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط
أدغال (الكامبيون) ، وفي بيئة غريبة وأمراض
أحرب وأخطار لا تنتهي في كل دقيقة ..

وفي هذه الروايات نقرأ منكرات د. (علاء) ..
نعيش معه ذلك العالم العجيب الذي لم تتجح الحضارة
في تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة
المجائنين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرترقة الذين
لايمزحون .. وسارقي الأعضاء البشرية .. والعلماء
المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيينا الشاب كي
يظل حياً .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل
طبيباً ..

تعالوا تلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..
تعالوا تدخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلى
البراكين ..

تعالوا تواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

١ - لماذا مات ؟

طبيب طائر قرب (سافارى) .. من سمع عن أسخف
من هذا ؟

أقصى ما تقارقه الضحية هو أن تغدو جلاذا ، خاصة
لو كانت تعرف يقينا أنها ستكون جلاذا ..

ما علاقة هذا بقصة اليوم ؟ لست متأكدا ، لكنه قول
يوحي بالعمق والحكمة ، فمن منا يا سادة لا يحب أن يبدو
عميقا حكيما ، ولو للحظات ؟ إن هذا منعش فى بركة
الغمام والحمق التى نعش فيها كل يوم حتى الذقون ..

هذه هى وحدة (سافارى) ..
لا بد أنكم الآن لن تضلوا الطريق فيها ، بعدما عثتم
داخلها خمس عشرة مرة .. لا بد أنكم تعرفون هذا
الملخل المفضى إلى الاستقبال ، وهذه الردهة التى تقود
إلى مكتب المدير . هنا المعمل حيث تنتظرنى (هيلجا)
لتجرد عظام ساقى من لحمها ، وهنا بتريص (باركر)

نائب المدير ليخرب بيتي بشكل ما ، وهنا مقلب جديد
ينتظرني من (أبرهام ليفي) .. هنا تستعد (برنات)
بضحكتها الصبوح التي (تصنع يومى) كما يقول الإنجليز ،
وهنا (بودرجا) المذعور دائما الشاعر بالغين أبدا ،
يحمل لى آخر أخبار الأرواح .. (بسام) الأتيق اللامع
دائما كأنما فرغ قورا من حمام منعش ، و (أثر
شيلبي) العظيم - المشكلة أنه أكثر من يعرف هذا - يقف
بالغليون فى فمه ، متقمصا شخصية بارونات الطب
العظام من القرن الماضى ..

وهؤلاء هم المرضى .. وأنتم قد لاحظتم أنهم يحملون
نفس السمات تقريبا .. فى (مصر) كنا نعرف مريض
الكبد على الفور وهو على مدخل المستشفى ، وكنا نعرف
الطفل الذى لم يأكل ولم ينم منذ سنتين .. هنا يمكنك
بسهولة بالغة أن تحدد مريض الملاريا ومريض الكالا أزار
بمجرد رؤيته .. المشكلة هي أن أمراض الحضارة عرفت
مسبيلها إلى هؤلاء القوم ، وصار لديهم مرض السكر
واتسداد الشرايين التاجية ، بالإضافة إلى هدية (سان
فرانسيسكو) القلبية التي لن ينساها للعالم أبدا : الإيدز ..

وهذا أنا .. العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير :
(علام عبد العظيم) .. كما ترون ، فإن وجهى مزال كما

هو .. وإن ظهرت بعض شعيرات بيضاء في مفرقي ..
كلا .. ليست علامة شيخوخة .. لا تقولوا هذا .. لقد
ورثت الشيب المبكر من أبي ، وهو الذي كان رأسه بلون
الثلج في سن الثلاثين . ليس لهذا علاقة بتوترى
ولا حنينى إلى البيت ، ولا كل الأهوال التى أراها كلما لم
يعد طبيبى سوى فى (صافارى) كلها ..

يقولون إننى وسيم .. إحداهن قالتها لى - ولم تكن
هى المطلوبة للأسف - فاحمرت أنفائى كالأطفال ، ورحت
أعثر بطرف حذائى فى الأرض .. ربما كنت كذلك أو لم
أكن .. لكننى (رجل امرأة واحدة) ، وهذه للواحدة - كما
تعلمون فأنتم لم تعودوا أغراباً - لم تظهر لى أكثر من
الصداقة ولا يبدو أنها ستتغير مع الزمن ..

يقولون إننى سريع التعلم وبارع .. كما متأكد من الصفة
الأولى ، لكنى أجد عسراً بالغاً فى تصديق الصفة الثانية .
كنا بارع ؟ لا أعتقد .. والدليل هو الموقف التالى ..

رأيت الشاب فى الثانية بعد الظهر ، وتوفى بعد هذا
بيومين ..

بالطبع لم أكن أعرف ولا هو كان يعرف ، وإننى

لا تمنى لو عاد الزمن إلى اللحظة التي كان ينبض فيها
بالحياة كي أدقق ، وأجيب عن كل الأسئلة التي أطرحها
على نفسي الآن فلا أظفر بإجابة ..

اسمه (أحمدو ميتابوا) .. السن عشرون عامًا
ونيف .. هو من الأهالي هنا ، كما هو واضح من الاسم
وبالتحديد من نسبة الـ ٢٢ ٪ للمسلمين التي تكرتها لك
من قبل .. يوشك المسلمون أن يكونوا مقصورين على
شمال البلاد ، أما المسيحيون فيتركزون جنوبًا ..

الفتى يعاني أعراضًا لا يمكن أن تتجاهلها باعتبارها
التهاب زائدة دودية .. طبعًا هناك السؤال الشهير الذي
وقع فيه كل طبيب مبتدئ : هل هذا التهاب زائدة أم
مقصر كلوي أيمن يتركز في الحالب ؟ لكني لم أعد مبتدئًا ،
ويمكنني - بلا خطأ كبير - أن أعلن أن هذا التهاب زائدة ..
وأنا أطلب الفحوص اللازمة وأخطر الجراحين . إن عد
كرات الدم البيضاء ما زال من خير الأساليب المتبعة
للتأكد من التشخيص ، برغم أن الطب الحديث يزيد
الأمور تعقيدًا كل دقيقة كالعادة ..

الفتى سيموت بعد يومين .. لا أحد يعرف هذا سوى
خالقه .. واليومان الآن نقصًا بضع ساعات ، بينما فريق
الجراحة المكون من الطبيب الإنجليزي الشاب (مايكل

للسون) ومساعدته للكاسيرونى (بول بيا) ، وطبيرة
للتخدير الالكمانية - أو نعلها نعلابية - (هانا) ، يعملون
فى سرعة ودقة على استئصال الزائدة للحقواء المزعجة .

لا تتوقع أسماء كبيرة هنا ولا مهارات جراحية غير
عادية ، لأن جراحة الزائدة ستظل عملاً روتينياً يؤديه
أى جراح .. هم فقط يتنافسون فى قصر الوقت والجرح
الذى يستخرجون من خلاله الزائدة ..

كل شىء تمام .. تشخيصى دقيق .. الزائدة ملتهبة
كالحجيم منذرة بالويل .. حالة المريض ممتازة .. مهارة
الجراح لا شك فيها وكذلك طبيرة التخدير ..

كل هذا صحيح ، لكن الفتى سيموت بعد أقل من
يومين .. ها هو ذا الموت يدخل العنابر ويستعد .. إنه
ينزع عباءته السوداء المبتلة بالدماء والدموع .. يخلع
قفازيه للزجين .. يضع كل هذا على مشجب فى ركن
المكان .. يبحث عن مقعد مريح ، ثم يجلس وهو ينظر
إلى ساعته فى ملل .. ما زالت أمام الفتى بضع ساعات
يقضيها فى الإفاقة .. فى تبادل الدعابات مع الممرضات ..
فى تلقى التهنأتى بالسلامة .. بعد هذا سينهض الموت
ليقف عند رأس الفراش وينتهى كل شىء ..

ولم يكن أحد يرى هذا .. ثم يكن أحد يستطيع أن يرى الموت جالسا في مقعده يراقب في سلم سخافاتنا وثرثرتنا التي لا تنتهى ..

بعد ست ساعات زاره الجراح فقط ليطمئن ، وكان الفتى يجيد الإنجليزية ، وقد مر الجراح لهذا لأنه سلم - مثل أكثرنا - كل هذه الأعمال الفرنسية المعقدة ، وتقاليدهم الشفاء شديدة التعقيد .. جلس يثرثر مع الفتى فبدأ له سريع للخاطر نكبا للغاية .. وتصرف بعد ربع ساعة شاعرا بأنه تجهز الكثير إن كانت جراحة الزائدة للدوية تعتل الكثير ..

انتبهوا .. لقد بدأ العد التنازلى ..

هذا الفتى سيموت بعد قليل .. لا مفر أمامه ..

عند مساء اليوم الثانى بدأ يتشنج .. بدأ جسده ينتصب كقوس فى الفراش ، وراح الزيد يخرج من بين شفتيه ، وكان الطبيب المقيم فى قسم الجراحة حديث الخبرة ، فلم يخطر له إلا أن هذه حالة نقص كالسيوم - لسبب يعلمه الله وحده - فهو كزاز من جرح متلوث .. وهكذا قام بما يستطيع عمله : حقن المريض بالكالسيوم ومضاد للتشنجات .. ثم ثبت قناع الأوكسجين وانتظر ..

لكن الأمور ازدادت سوءاً ، وبدأ أن التشنجات
لا تزول ، وهكذا أرسل يستدعى مختص الأمراض
العصبية ، وكانت لهذا الأخير نظرة مختلفة بالتأكيد .. لقد
لاحظ تباطؤ نبض المريض ، وارتفاع ضغط دمه ، كما
صوب كشافه الرقيق إلى الحذقتين وأبدى رأيه :

« هذه أوديميا دماغية .. »

والأديميا الدماغية هي تجمع السوائل في أنسجة المخ ..
وأسبابها عديدة لا يمكن استيعابها بهذه السرعة ، لكن
حلتها واحد مهما كان السبب .. وممرعان ما بدأ حقن
الماتيتول الوريدي ، وإعطاء حقن الديكساميثازون ..

لكن الأمور كانت تسوء بسرعة غير مسبوقه ،
والموت قد ارتدى قفازيه وعباءته ووقف عند رأس
الفراش الآن ..

وجاء (آثر شيلبي) يركض .. فألقى نظرة على
المشهد ولاحظ نوعية التشنجات ، ولاحظ أن المريض
صار في غيبوبة تقريباً .. رفع خصلة الشعر الرمادي
التي غطت إحدى عينيه وقال :

« هذا ليس مرض الكزاز بالتأكيد .. هل هو التهاب

المخ الحاد ؟ »



والموت قد ارتدى قفازيه وعباءته ، ووقف عند رأس الفراش
الآن ..

لا إجابة .. لأنه لو كانت هناك إجابة لنكرها (شيلبي)
نفسه ..

اقترح أحقق أن يأخذوا عينة من العسل للتحاكي
الشوكي ، لكن (شيلبي) رفع كفه في عصبية وقال :
« ليس في حالة أوبيما الدماغ .. إن هذا سيقفله
دون مقدمات .. »

بارع هو (شيلبي) .. حويط هو مختص الأمراض العصبية ..
حذر هو الطبيب المقيم .. لكن الموت أكثر براعة وحيلة
وحذرًا .. وقد قام بحركته الأخيرة في هدوء ، ثم غامر
المكان وهو يضم طرفي عبايته على صدره .. هناك طفل
في الجناح المجاور ، عليه أن يقف عند رأس فراشه
الآن .. لا وقت بضيع .. إن البيزنس هو البيزنس ..

ووقف الأطباء يتبادلون النظرات في حيرة ، ثم قال
(شيلبي) :

« لقد فقدنا هذا .. عسى أن يجد التشريح أجوبة
ما .. »

٢ - كدت أنطق !

انتهى اليوم الخامس المتبقى على وفاة الطيبة
للبلجيكية (إيلودي مولان) ..

★ ★ ★

من حقه - أظن الله عرك - أن تموت في بساطة
في أي مكان في العالم ، ماعدا في وحدة (سافاري) .
لا بد من تفسير مرض .. ولابد أن يتعلم الطب جديداً من
وفاتك هذه .. كما لابد أن نحاسب المخطئ لو كان هناك
واحد .. هكذا - كما يحدث دائماً - حملوا اللجثة إلى المشرحة
حيث (جديرون) الطبيب الذي يعرف ويفعل كل شيء بعد
فوات الأوان حسب تصنيف الأطباء القديم ..

لم أتبع لما تفاصيل الموضوع ، برغم ولعي الخاص
بالتدخل فيما لا يعنوني ، لأنني نكثت الأمرين من هذا
للولع في الفترة الأخيرة أولاً ، ولأنني لست مهتماً بمعرفة
سبب وفاة كل مريض هنا .. سمعت الخبر عرضاً من
إحدى الممرضات ، فقلت لنفسي : هذه حالة أخرى لم
تكن كما حسبنا .. (علاء) يا صديقي .. أنت لست

بالبراعة التي تحسب أحياناً أنك تملكها ، وهم أَرْضنا
ليسوا بأرعين .. لقد أخطأ الجميع لكن هذا لا يعزيني في
شيء ..

كنت في هذه الآونة قد أُرِمعت أن أخوض حربي
الخاصة في موضوع حان وقت لئبت فيه ..

كنت جالساً في كافيتريا (سافاري) أطالع إحدى
الصحف الكامبرونية المطبوعة بالفرنسية ، وكان هذا
حين مرت (برنات) .. كانت تحمل الصينية المعلاة
وقد بدا من كميات الطعام أنها تشعر بشهية طيبة . هزت
رأسها ورسمت تعبير (التشنكة) العتيد على وجهها ،
ثم جثت مقعداً وجلست .. مدت رأسها الصغير ترى
ما هذا الذي لقروه ، ثم قالت باسمه :

« آه ! هذا لهرام عن الطبق قرب (أجاواتيري) ؟ »

وصفرت بغمها التفضلات الخمس المميزة للطبق الطاهر
في فيلم (سبيلبيرج) الشهير (لقاءات لصيقة من النوع
الثالث) ، فقلت لها بغياء :

« لا أعرف أي شيء عن الموضوع .. »

هزت رأسها في مكر وقلت :

- « لقد عرفته بالكامل الآن ! طبق طائر (أجاويدري) ..
لقاءات لصيفة من النوع الثالث .. ماذا تريد أكثر من
هذا ؟ »

نظرت إلى الجريدة في فضول ، وقلت دون أن أجد
الفرصة الكافية للتركيز :

- « متى ؟ »

- « منذ أسبوع .. أين كنت أنت ؟ في (منغوليا)
على ما أظن ؟ »

- « وهل خرج من الطبق رجال خضر لهم أجهزة
استشعار على الرءوس ؟ »

- « تقريبًا .. الفارق البسيط هو أنهم كتوا حمر
قلون ، وكتوا طوال القامة ، وقد رشوا مادة لزجة ما
على المشاهدين .. ثم هوب ! ركبوا طبقهم عاكسين إلى
الوطن الحبيب .. »

- « ومن كان المشاهدين ؟ »

.. « من تظن ؟ مجموعة من الأهلى الوطنيين الذين
امتألت عقولهم بأساطير السحر والأرواح ، وكتوا هم

الشهود على ما حدث .. لا تتوقع أن تجد من بينهم خبير
اتصالات كونية أو عالم فلك .. »

فكرت قليلاً في الأمر ثم قلت لها :

- « هل تريدان ؟ إنني ألقى بشهادة هؤلاء القوم ..
لأنها بها أكثر من شهادة أوروبي أو أمريكي .. »

- « لماذا ؟ هل هو التصيب ضد الرجل الأبيض ؟ »

- « لا .. بل لأنهم أرض بكر لم تتسمم أفكارها بكل
أفلام الخيال العلمي و (ملفات إكس) وما إلى ذلك .. إنهم
لا يملكون قاعات مسبقة ، ولا يملكون خلفيات محددة سلفاً ..
هؤلاء القوم لا يعرفون بالضبط ما عليهم أن يتوقعوه ،
وحين يقول أحدهم إنه رأى طبقاً طائرًا يخرج منه رجال
حمر ، فإنه يقول في الغالب ما رآه بالفعل .. بينما يمكنني
أن أرتاب مليون مرة في كلام مشابه بقوله رجل قرأ
قصص الخيال العلمي وشاهد أفلام الحرف (ب) .. »

فكرت في كلامي قليلاً ، وأبطلت من حركة المضغ ثم
قلت :

- « ربما كان كلامك على شيء من المنطق .. إن من
لم ير سيارة لا يمكن أن يتخيل حادثة طريق .. ولو وصفه

فهو غالباً صادق .. ولكن دعك من هذا ولتحدث عن
أمور أكثر جدية .. »

واللحظات تلاقى عيننا وكل منا يبحث عن الشيء
الجديد الذى يقال .. طالت الفترة حتى أشعرتنا بالارتباك ،
لكننى أركت أن روحينا الآن على نفس الموجة ، وأن
ظاهرة الرنين التى درستها فى الفيزياء منذ زمن مسحيق
تعلن الآن عن نفسها .. رنانات (هلمهولتز) .. أنكر هذا
الاسم .. ماذا كان معناه .. ؟ الآن هى - (برنات) لارنانات
(هلمهولتز) - تنعم للنظر إلى أعماق أعماق روحى ،
وترى بوضوح الإجابة عن كل الأسئلة ، حتى تلك التى
لم تطرح بعد ..

كنت الآن ضعيفاً متهاكاً .. كتنى مريض قلب معدوم
الحيلة لا يملك حتى القدرة على رفع يده متوسلاً ..
العرق البارد يقمر جبينى ، وأنفاسى صارت معدودة لها
ثمن وعليها ضريبة وجمارك .. كنت الآن طفلاً لا يملك
إلا للنظر متوسلاً إلى ماما التى تعرف كل شيء ..

الآن يحمر وجه (برنات) .. تسطيل أهدابها لتغطي
المفردة .. تقول لى فى وهن :

.. « لا تفعل يا (علاء) .. أرجوك .. »

أنهت لنا واستجمع بعض الأنفاس المتبقية في الفضاء
للميت برلتي ، وأهمس :

.. « أفعل ماذا ؟ »

.. « لا تفعل ما اعتقد أنك تتوى قوله .. هذا سيحدد
الأمور صلتى .. »

لا داعي للمراعاة .. إنها فعلاً ترى كل تضاريس
روحي ، وترى ومضات الأفكار الكهربائية ، وهي تعتبر هذه
للخلية العصبية أو تلك في قشرة مخي ..

.. « ولـ .. ولماذا لا لقوله الآن ؟ »

.. « لأنك لن تستطيع أن تتراجع عن هذا أبداً ولن
تملك الاعتذار عنه .. بعدما لن تعود الحياة كما كانت ..
إن لحظات من الصمت هي ما نحتاج إليه الآن .. »

كانت لفتي اليمنى تتحرك الآن حركة عصبية مستمرة
لا أملك للسيطرة عليها ، وفهضتي على الجريدة قد أحللتها
إلى منديل ورقي مهتل .. لكنني فعلت كما طلبت (برلتي)
ورحلت أنفاس بصعوبة من أنفسي كما يفعل مدمنو
الكوكايين .. و ...

وهنا دوى صوت الاستدعاء من مكبر الصوت الذى
يتحرك بموقف (اللنجات) ..

الدكتورة (برنات جونز) مطلوبة فى قسم
الأطفال حالا .. الدكتورة (برنات جونز) مطلقا ...

لبتسمت لى مشجعة ، وجرعت ما يكوبها من مياه
غائرية على وجه السرعة ، ثم جففت فاهها بمنديل ورقى
وهرعت تلبى النداء ..

لين يا ترى تلك الأحلام التى ألهمت صدرى لثوان ؟

- « كلها قد ملئت »

- « ولماذا يا سيدى ؟ »

- « وكيف لى أن أعرف ؟ إن المعجزة الحقيقية هى

أن يظل هذا الحيوان حيا بجهز مناعى هش كهذا .. »

كان القيصر - كما يطلقون عليه سرا - لو أستلذ

المناعة الأكمالى للعظيم (هازل شيفرن) يقف وسط

أقفاص خنازير (غينيا) واضعا قبضتيه فى خصره ،

يتأمل فى حمرة وضيق عشرات الجثث الصغيرة

المكومة فى أقفاصها ...

بالطبع كانت للتظرة في عتيه نقول : « الخير على
 قدوم اللواردين » باعتبار هذا أول يوم لى العمل فى
 وحدته .. ولحسن الحظ أن هذه الوفاة الجماعية تمت
 قبل أن أجتاز المعمل ، وإلا لانهى بدم السم لها ، أو
 أننى حمود أو ما إلى ذلك .. يعرف القراء الذين لهم
 صفة بالعلوم أن خنزير غينيا ليست خنازير ، ولكنها
 قوارض تنتمى إلى الجنس المسمى (كافيا , Cavia) ،
 وهى بالطبع كائنات وديعة بأسمه عانت الكثير من كون
 الإنسان وجدها البديل الرخيص غير الخطر للقرود . وقد
 هلكت أم عديدة من هذه الخنازير بداء الجمرة الخبيثة ،
 كما أن أعدادا مهولة هلكت منها فى قنّاء تجارب (باستير)
 على بكتريا الاضمحلال أو للدرن .. للمشكلة هى أن جهازها
 المناعى ضعيف رقيق ، وأن الإصابات تبدو أوضح إذا
 ما قمت بتشريحها ..

ارتدى الأمتى قلّازا واقيا والتقط أحد للكائنات
 الغريبة الميته من قفصه ، وقال لى :

« ستكون أول عملية تقوم بها هى تشريح هذا
 المخلوق المتص .. أريد أن تحدد لى سبب الوفاة بدقة ،
 ويعنى هذا أن تقوم بتشريح ست جثث عشوائية .. »

قلت له شاعرًا بتوتر المسئولية :

- « وماذا عن المزارع ؟ ماذا عن تحليل السموم ؟ »

- « ستجد كل ما يلزمك هنا من أنابيب اختبار وأطباق

(بتري) .. إن عينات الدم تؤخذ من القلب مباشرة كما

نعلم .. لا تنس أن تضع كمامة وتتأكد من التخلص من

بقايا التشريح في الفرن .. »

وهكذا وجدت نفسي أجلس أمام منضدة صغيرة ، وقد

ثبتت للجنة الصغيرة المشعرة بالديابيس إلى طبقة من

الشمع ، وبالمبضع رحت أشق الأنسجة عن جدران

البطن .. ليس هذا عسيرًا .. إبنى بطبعي جراح أعشق

الأفعال ، لكنني أخشى أن يفوتني شيء مهم فلا لاحظته ..

حقًا لم يكن هناك ما يريب .. كل شيء بالحجم الطبيعي

وفي مكانه الصحيح .. قمت بتصنيف بعض عينات أرسلتها

إلى المعمل .. عينات بكتريولوجية ، وعينات للبحث عن

الفيروسات ، كما طلبت بعض فحوص الدم .. وكررت هذه

المهمة ست مرات كما طلب للرجل ..

عبدت إليه حيث كان عاكفًا مع بعض معاونيه على

فحص بعض الشرائح تحت مجهر متعدد العدسات .. قلت
له : إتنى فرغت من التشريح وإتنى ...

- « لا تقل شيئاً .. »

قال لى دون أن يرفع عينه عن العدسة :

- « أريد تقريراً مكتوباً وممهوراً بإمضائك .. إتنا هنا
لا نملك قاعدة عمل إلا الدقة التامة .. لو أردت أن تكون
عالم مناعة فعليك بالدقة التامة فى كل شيء .. »
هزئت رأسى موافقاً ..

ومن قال له إتنى أرغب فى أن أكون عالم مناعة ؟



٢ - عن اللقاءات اللصيقة وأنيميا شلل النخاع

انتهى اليوم الثالث للمتبقي على وفاة الطبيبة البلجيكية
(إيلودي مولان) ..

★ ★ ★

لم يكن (شيفرن) سمجاً قلبياً كما يبدو من طريقة
كلامه ، لكن حادث فقد خنارير غريباً جعله ضيق الصدر
نالده الصبر . وبشكل ما كنت أفهمه ..

كنت أعرف أن أياً ما سوداء تنتظرني هنا في قسم
للمناعة ، لكنني بالتأكيد آخر شخص من خلق الله يمكن
أن يهتم بتلك المصطلحات الغامضة ، وأنواع المستضدات
والخلايا التي تحمل مستقبلات CD 4 أو CD 8
والإنترلوكين .. إلخ .. كل هذا العالم للمعتقد كان يشير
تفوق الأطباء التقليديين وسخريتهم ، حتى ظهر لنا مرض
مناعي شنيع اسمه الإيدز .. عندها هرع الجميع إلى
كهنة علم المناعة في محرابهم ، وجثثون على ركبهم
ويسألونهم أن يشرحوا لهم أسرار هذا الكهنوت الغامض ..

الحق إن حقبتى الثمانيات والتسعينات جعلتا علم المناعة
أهم علوم الطب ..

★ ★ ★

إلى أن نعرف نتائج التشريح ، رحلت أقضى يومى
بانتظام ما بين العمل المثير للاكتئاب مع (شيفرن) وبين
الاكتئاب ذاته وحدى .. الاكتئاب الخام الذى يمكن أن
تذيب منه قطعاً فى مياه الشرب ، لتجعل أمة من البشر
تقرر الانتحار ..

فى هذا الوقت لم يكن لدى أفرد (مافارى) حديث
إلا عن خرافة الطبق الطائر الذى شوهد قرب الوحدة ..
حقاً لم يره أحد من الغربيين ، لكن هذا - كما قلت آنفاً -
يجعل تصديق القصة أسهل بالنسبة لى .. وكان من
الواضح أن القصة لن تثبت أن تتدثر كحجر ، ألقى فى
الماء ليحدث دوائر ودوائر لا تثبت أن تنتهى .. وبينى
وبينك كان الحجر الذى ألقى فى لجة مشاعري كفيلاً
بجعلى لا أبالى كثيراً بلية أحجار أخرى ..

إن اللقاءات النصيفة من النوع الأول - كما يعرفها
د. (آلن هاينك) خبير الأطباء للطائرة الأمريكى - هى

اللقاءات التي يرى فيها الإنسان جسمًا طائرًا غير معروف Unidentified Flying Object أو كما يدلُّه الأمريكيون UFO .. ولقد شاعت لفظة UFO وانتشرت لدى العامة إلى حد أن معناها صار (طبق طائر) دون تحفظ ..

اللقاءات الصيقة من النوع الثاني هي تلك اللقاءات التي يترك فيها التطبيق الطائر أثرًا ماديًا لا شك فيه .. إن العشب المحترق أو الفصون المهشمة تكون كاهية غالبًا للبرهنة على أن هذا النوع من اللقاءات حدث ..

اللقاءات الصيقة من النوع الثالث هي اللقاءات موضوع الجدل ، والتي يخرج فيها من التطبيق الطائر رواة قضاء حقيقيون - بقرون استعمار أو بدون - ليتكلموا مع أو يختطفوا البشر .. وقد كان فيلم (سبيليرج) للشهير الذي يحمل نفس الاسم هو بداية السيل في عودة حمى الأطباق الطائرة ، وهي حمى تنتشرت في الخمسينات وألهمت القصص المصورة ، والأفلام العلمية الرخيصة التي يسمونها أفلام حرف (ب) ..

بعد هذا لعب مسلسل (ملفات إكس) وأفلام من طراز

(يوم الاستقلال) دوراً عظيماً في جعل هذه التخرصات
أمراً لا شك فيه ، وهو نموذج جيد للطبيعة حين تقلد
الفن كما يقول (أوسكار وايلد) . من الآن فصاعداً لن
يسمح أحد للقضاء بأن يخلو من كائنات عاكلة ، ولن
يسمح أحد لهذه الكائنات بأن تتنقل إلا بأطباق طائرة أو
تقتل إلا بالليزر . من الآن يمكن أن يقتلك أي أمريكي
لو شككت للحظة في أن الحكومة الأمريكية تخفي طبقاً
طائراً وجثث كائنات فضاء ، في تلك البقعة العسكرية
السرية المعروفة بالمنطقة ٥١ ..

كان الأهلى إذن يتحدثون عن لقاءات لصيقة من
النوع الثالث ، ولم يكن أحد من الغربيين مستعداً لأخذ
كلامهم بجدية ، خاصة أن الطبى للطائر لم يترك أية آثار
ملموسة .. أضف لهذا أن نطاقات ظهور الأطباق الطائرة
حول الأرض معروفة ، ولا يمر أحدها بالكلميرون كما لا يمر
أحدها بمصر ..

وهكذا تجاهلنا القصة وقتها كما نتجاهل أشياء أخرى
كثيرة ..

★ ★ ★

انتهى اليوم الثنى المتبقى على وفاة الطبيب البلجيكية
(إيلودي مولان) .. -

فى هذا الوقت لم تكن تعلق إلا أعراض التهاب
بالخلق ملوقة وعلاية جداً .. وقد أعطت لنفسها بنفسها
بعض الأمهاتلين ، لكن الأمور لم تغد أفضل .. ارتفعت
درجة حرارتها ، وصار تنفسها عسيراً ، وفى النهاية تم
إخلائها كمريضة فى قسم الأمراض الصدرية ، وقد
اعتبرت مصابة بأحد الأنواع غير النمطية من الالتهاب
الربوى ..

بقى لها يوم واحد الآن فى (سافارى) لكن أحداً لم
يعرف هذا بالطبع ..

كانت نتيجة فحص الدم محيرة .. إن الخلايا البيضاء
منخفضة إلى حد لا يصدق .. وهكذا كان تشخيص الحالة
الأساسى هو الالتهاب الربوى ، نجم عن نقص مناعى
غير مفهوم .. وقد قاموا بعمل الفحوص اللازمة ،
وأعطوها مظلة من المضادات الحيوية لمنع تساق عدوى
أخرى ، وكتبوا فى سجلهم إلى حقنها بالغلانز التى
يفتقر لها دمها أو بعض العوامل المنشطة لمستعمرات

للخلايا البيضاء ، لكنهم تمسوا شيئاً مهماً : لقد انتهى
اليوم التالي فيما تبقى لها من عمر ، ولم يعد إتقاذها
ممكناً ..

لم تتعذب كثيراً ، لكنها غابت في صمت في ذلك العالم
الذي لم يعد منه أحد ولم يجب عن أسئلة ..

بالطبع توجد أسباب كثيرة لهذه الحالة .. إن الخلايا
البيضاء في جسمنا هي أفراد جيش المناعة الذي يقاوم
العدوى بكل صورها .. صحيح أن الأمور ازدادت تعقيداً
وتحفظاً ، لكن نظل هذه هي الحقيقة البسيطة المجردة
منذ اكتشافها (متشكوف) عام ١٨٨٥ حتى اليوم ..
حين تتدهور الخلايا البيضاء أو ينقص عددها ، يصاب
الجسم بكل شيء ممكن ، وتنفذ عظمة الرضيع بمثابة
قذيفة مدفع بالنسبة للمريض .. هذه إذن قصة بسيطة
جداً تتلخص في أن خلايا الطبقة البيضاء نقصت بشكل
غير مفهوم ، ولكن لماذا نقصت ؟ تلك هي المسألة ..

وفي اليوم التالي لهذا التسارع المحزن ، وبينما
(سافاري) كلها في حالة من الاكتئاب العميق ، جاءتني
تقارير موت خنازير (غينيا) .. ماذا يتوقعون كان فيها ؟

بالضبط .. « كانت نتيجة فحص الدم محيرة .. إن الخلايا
البيضاء منخفضة إلى حد لا يصدق » . وقد اقترح
المعمل أن يكون سبب ما حدث هو أنيميا شلل النخاع
الحادة .. أما بالنسبة لوجود فيروسات أو بكتريا أو
ما يسميه المترجمون (أخماج) لم يصب لأعرفه ، فقد
كانت النتيجة سلبية حتى هذه اللحظة .. وهي لحظة
مبكرة على كل حال ..

حملت الأوراق ملهوقاً إلى القصر (شيفرن) ، فنظر
فيها ثم نظر لي .. وأعد القراءة مراراً ..

أخيراً قل لي ، وقد بدأت يده تهتز انفعالاً :

— « آي آي .. هذا يبدو مهماً .. مهماً جداً .. »

ثم طوى التقارير ونسها في جيبه ، وقال :

— « (بارتلييه) يجب أن يرى هذا وأن يكون له

رأى ما .. »

قلت في عدم فهم :

— « يمكنني لنا أن أقابله وأن أقبل له الصورة .. إن

علاقتهما .. »



« كانت نتيجة فحص الدم مخيرة .. إن الخلايا البيضاء
منخفضة إلى حدٍّ لا يصدق »

فلطفتني باسمًا للمرة الأولى منذ أيام :

- « أعرف .. لكن وجهي العالِم سيَجعله بهمٍ
أصرع .. ويكون اهتمامه أكثر عمقًا وفعالية .. »

وما لم يقله هو أن ضريبة الشباب التي يجب دفعها ، هي
كون لا أحد يصدقهم بسهولة .. إن تهمة الاستهتار أو
الخفة أو الخرق تحوم حول رءوسهم دومًا ، وأنا - طيلة
حياتي - أعطيت انطباعًا بأنني أصغر سنًا من الحقيقة ..
حتى بالشعيرات البيضاء التي بدأت تغزو مفرقي ولحياتي ،
أبدو في العشرين من العمر ..

والفقت على فكرته .. وقررت أن أنتظر ..

ليكن حامل هذه الأخبار المزعجة إلى المدير البنفسج
شخصًا آخر سوى ، فقط على سبيل كسر العادة المملة ..

وفي الساعة مساءً استدعاني (هارتلييه) إلى مكتبه ،
ليؤمّنني .. لماذا ؟ لا أدرى بالضبط .. لكنها صارت هواية ..
وبشكل ما كنت أعرف أن هذا سيحدث ..

٤ - نحن نفكر في الشيء ذاته ..

توقعت أن يكونوا ولجمن كآتهم أركان حرب جيش تمت إبادته .. ولم يخب ظني كثيرا .. كان (بارتلييه) جالسا إلى مكتبه وقد أراح نفسه المكتتزة إلى قبضتيه ، وكان (باركر) جالسا وقد وضع ساقا على ساق بطالع للتقارير ، وكان (شيفرن) واقفا في حماس ، ويداه في جيبى سرواله كأنما كان يخوض موقعة مهمة . وبالطبع كان لابد أن تجد (آثر شيلبي) يتعمم في ثقة كأنه كان يعرف أن هذا سيحدث .. و .. ماذا ؟ (جيبسون) هنا أيضا وهو لا يطيق (بارتلييه) ؟ غريب هذا .. واضح أنه أمر جلل إذن ..

.. « معاء للخير يا سادة » ..

فكتها وانتظرت ما يقال من كولث لا أعرف ما هي بالضبط ..

أشار لي (باركر) كي أجلس في مقعد ما هناك ، وقال دون أن ينظر لي :

- « د . (عيد العظيم) .. أنت من طلب هذه التقارير
للخاصة بخنازير غينيا ؟ »

نظرت إلى (شيفرن) وقالت :

- « بناء على أوامر البروفيسور (شيفرن) .. نعم .. »

- « ثمة مشكلة صغيرة هي أن التقارير تتشابه بشدة
مع تقارير الطبيب البلجيكية المتوفاة .. »

- « أعرف يا سيدى .. لكننى لم أعرف أنكم قمتم
بتشريحها .. »

- « لم نفعل .. ثمة اعتبارات إنسانية وسياسية منعنا
من ذلك .. لكن لدينا تقارير ما أجرى لها من أبحاث قبل
الوفاة .. »

هنا دق جرس غامض فى ذاكرتى .. تذكرت نقطة
بالغة الأهمية .. قلت :

- « ومريض الزائدة الكامبيرونى الذى توفى بلا تفسير
واضح يا سيدى .. هل ؟ »

هنا تدخل (جيديون) قائلاً :

- « ليس نفس الشيء .. لرى لك ربطت بين الموضوعين ،
وهذا يعرّنى بقدر ما يثير دهشتى .. لماذا ؟ »

- « الوقاة المفاجئة بلا تفسير .. هذا هو الرابط . »

قال (جيديون) وهو يرجع بعض الأوراق فى يده :

- « المريض الكامبيرونى (أحمد ميتلبوا) توفى من
جراث تورم عام فى أنسجة المخ .. لا توجد مشاكل فى
بمه ، ولا شىء يشبه ما حدث للطبيبة وخنازير غينيا . »

سألته فى حنر :

- « هل هو وباء جديد يا سيدى ؟ أعنى مثل الموضوع
(العين التى تنزف دماً) أو الحميات النزفية ؟ »

هنا تدخل (بارتلييه) أستاذ الفيروسات القديم وقال :

- « حتى هذه اللحظة لم يظهر لنا شىء .. لكننا نواصل
البحث .. ثمة احتمال لا بأس به أن هذا فيروس جديد
تسرب إلى (سانفارى) .. لكن من المؤكد أن مخلفات
الجثث لم تقتل خنازير غينيا المقيمة .. »

- « وهذا لا يطابق ما هو معلوم من علم الأوبئة .. »

هز كفه بمعنى أنه ليس واثقاً من شىء ، ثم قال :

.. لم تعد القواعد واضحة كما كانت في الماضي .. إن
لدينا مجموعة جديدة غريبة الأطوار من الفيروسات ،
ولدينا الليريونات التي هي مجرد بروتين بلا حمض
نوى ، ورغم هذا تحيا وتصيب بالمرض وتقتل .. »

قال (شيلبي) فها هو الاستمتاع بحيرتنا :

— « لو أن (بلستير) عاد للحياة اليوم ، لأصابه
الجنون .. لم تعد هناك قاعدة واحدة ثابتة محترمة .. إن
لقد يحمل لنا كل شيء .. »

هنا عاد (جيلبون) يتكلم بصوته المميز الأخف
قليلاً :

— « لكتنا يجب أن نفكر في كل شيء .. لقد طلبت
تحليل للبغايا من ناحية الإشعاع .. »

هذا منطقي .. إن الإشعاعات الذرية تدمر نخاع
العظام حتماً ، وتسبب أليماً شالاً للنخاع .. ولكن
ما مصدرها ؟

قال (بارتلييه) في شيء من الحرج كلما ارتكب
خطيئة أو قال شيئاً بذيئاً :

- « كنت أخشى أن أبدو سخيًا .. لكنني وجدت هؤلاء
المسادة - وكل منهم حجة في علمه - يفكرون في الشيء
ذاته .. لقد بدأ كل شيء مع ظهور هذا الطبق للطائر
الغريب قرب (أنجاواتندري) .. »

تعلمت حتى لا أتفجر ضحكًا .. حتى أنتم تفكرون
بالطريقة ذاتها ؟

قال (شيلبي) في برود :

- « على رجل العظم ألا يحتفظ بفتاعات سابقة .. كلنا
شعرنا بأشياء غير متوقعة بعد ظهور الطبق .. أو كما
يُزعم الأهالي .. وإنتي لأستل نفسي عما إذا كانت هذه
حالة من حالات (لقاءات النوع الثاني) حين يترك الطبق
الطائر آثارًا فيزيائية ملموسة .. في هذه الحالة يكون
الأثر نوعًا من الإشعاعات .. ربما مؤينة أو غير مؤينة ..
وهي قادرة على تدمير نخاع العظام أو إضعافه .. »

هنا أضيف (بارتلييه) مؤمنًا :

- « وربما هو فيروس فضائي مجهول لنا .. أنتم
تذكرون فرضية (ميريك) الشهيرة حول اللقاء الأول
بين البشر وكائنات الفضاء .. لقد فرض (ميريك) أن

قواتين الاحتمالات تجعل فرصة اللقاء الأول بين الإنسان والهاكتريا الفضائية ، أعلى منها بكثير بالنسبة لكلنتات معقدة عديدة الخلايا .. وبعبارة أخرى : سيكون أول ضيف من الفضاء بجىء إلى الأرض - فى الغالب - نوعاً غامضاً معقداً من الهاكتريا .. »

تدخل (جيديون) بلهجة من ينصحهم ألا يتركوا
لخيالهم اللسان ، وقال :

- « لا يجب أن نضع نظرية الطبق هذه كحقيقة مسلمة ، لكننى - كما قلت لكم - لا أدرى ما يمنع من أن نرسل إلى هناك من يبحث عن الحقيقة .. »

آههه افهمت اكنت على وشك التساؤل عن دورى فى هذا كله .. ستكون هناك حملة مكونة من ثلاثة أفراد تتجه فى سيارة ، عبر تلك الطرق الوعرة إلى إحدى القرى النائية .. وهناك ستجلس نلتهم الكاسافا مع زعيم القرية الذى يضع فيها روث الماشية على رأسه كناية عن علو المكانة . هذا السيناريو ليس غريباً على أبداً ..

وقال لى (بارتلييه) بلهجة من فرغ من مناقشة الأمر :

« متى تكون مستعداً ؟ »

« أي وقت يا سيدي .. هل من حقي للرفض ؟ »

« لا .. هذا أمر تكثيف .. سيكون معك (بودرجا)

طبعاً ، و ... ربما اخترت سمّاً ثانياً لم تستقر عليه بعد .. »

قلت له مذكراً وأنا أستاذ للتفويض :

« يا سيدي .. هل هناك خبير في طب الإشعاع في

(سافاري) أو على الأقل من يعرف كيف يستعمل عداد

(جايجر) ؟ »

تبادل النظر مع الآخرين .. هذه وجهة نظر مهمة ..

إن طب الإشعاع فرع مهم جداً من العلوم الطبية ، لكنه

بالتأكيد ليس الفرع الذي يمكن أن يوجد هنا في

(الكاميرون) .. إن أطباء الإشعاع يعملون في المطاعلات

ومحطات التجارب القريبة ، وليسوا موجودين تحت

الصخور التي ترفعها ..

قال (باركر) في تلك صبر كعائته :

« لدينا في قسم الأشعة العلاجية من يمكن أن يكون

أن يكون مفيداً في هذا .. »

وهكذا تم اتخاذ قرار الحملة وبقي أن تقوم فعلاً ..

عند المساء وصلنا إلى الموضع .. لم يكن بعيداً عن المدينة ، وكنت هناك مجموعة من الكواخ عمال للتعدين .. إن التيتانيوم شحيح في الكاميرون ، لكنه مازال مورداً اقتصادياً مهماً ..

وقف العمال يتأملون هليكوپتر (سافاري) بشعارها الغريب غير المألوف ، ومروحتها تدور فتبثّر الغبار في كل صوب ، وتطير الغسيل المعلق ليجف في فناء كل كوخ .. لا بد أنهم لم يكونوا أكثر دهشة حين رأوا الطير يهبط من السماء .. كان كبير العمال هنا يدعى (ملانجا) ، وهو رجل شديد السواد في الخمسين من عمره ، أصلع لرأس تماماً ، ويجيد الفرنسية ، وقد لنا منا ليقيم من نحن بالضبط ، وهو لا يلبس فوق سرواله إلا فائنة داخلية متسخة يطل منها كرش عظيم لا يمس به ..

كان الرجل مندهشين لقدمنا ، وأدركت أنهم لم يحظوا بزيارة رسمية منذ انتشر خبر هبوط الطير على الطائر .. إن الجهات الرسمية لم تصدق الخبر على

الإطلاق ، وربما ثم يلت سوى بعض صحفيين بلعشين
عن خبر مثير في صحفهم ..

قال (ماتانجا) وهو يشير إلى مساحة علوية من
الأشجار على بعد مائتي متر :

- « لقد هبط الشيء هناك .. كان يشبه الطبق تمامًا ،
وكانت أضواء حمراء وزرقاء تنبعث منه .. »

سألته وأنا متأكد من الإجابة :

- « هل رأيت هذا بعينيك ؟ »

أشار إلى بعض الرجال وقال :

- « كنت في المدينة وقتها ، لكن هؤلاء رأوه .. قلت
لي ما اسم هذا المستشفى الذي أرسلكم ؟ »

- « (سافاري) .. وحدة (سافاري) .. »

راح يلوك بعض الأعشاب ويصقها على الأرض ،
وقال :

- « تبتأ لتلك السماء ! إتهم بملكون منها الكثير حقًا ..
هذا هو ما يتعلمونه في مدارس (ياوندي) .. »

أقول إني كنت متأكداً من أنه لم ير الحدث بعينه ،
لأنك في الغالب حين تحقق في هذه الأمور الغريبة
تكتشف أن أحداً لم يرها رأى العين .. إنما سمع فلاناً
يقول إن فلاناً سمع أن فلاناً رآها .. والمثير هنا أن
الأول يكون متحمساً ويصدق كل شيء إلى حد أنه يوشك
أن يرى المشهد بتفاصيله .. بل إنه ينسى فيما بعد ما إذا
كان رأى التفاصيل أم سمعها فقط ..

عبت أسأل :

— « ومن رأى هؤلاء للرجال القادمين على هذا
الطريق ؟ »

أشار إلى امرأة سوداء تقف على بعد مترين - زوجة
أحد العمال كما يبدو - وهي مذعورة مخبولة هستيرية
ملتلئة تماماً كما هو واضح من اتساع عينيها ..

— « تكلمي يا (حاتمة) .. »

اتصت عينا (حاتمة) أكثر ، وراحت تحكي بنفث لم
تبينها قصة عظيمة جداً عن الرجال طوال القامة حمراء
اللون ، الذين خرجوا من الطريق الطائر ، وراحوا
يلحصون كل شيء حولهم ، ثم صوبوا المدافع الغربية
على الناس ، وأطلقوا منها سيلاً من مادة لزجة قذرة

على كل من أسعده للحظ بالتواجد ساعته .. بالطبع
فهمت هذا كله من رئيس العمال الذى يجيد للفرنسية
وليس (بويرجا) الذى لم يكن له داع هنا ..

- « وما هي هذه المادة ١٢ »

عانت المرأة تتكلم ، ثم هزعت إلى كوخها .. بعد ثوان
عانت حاملة ما يبدو كمنديل رأس ، تغطي كله بالمادة
إياها .. إنه شبيه بمنديل امتلأ بالمخاط ثم جف .. لا أكثر
ولا أقل .. قطعة قماش مجعدة منشأة ..

كانت القصة بعد هذا كما يلي : لم يحدث شيء .. !

فقط عاد لقوم إلى طبيعتهم الطائر و .. ووش ! حلقوا
نحو السحاب ، أما الأهالى فهرعوا مذعورين إلى
أكولخهم وراحوا يفسلون عيونهم وثيابهم من هذه المادة
الكريهة .. بمزيج من التفرز والذعر يمكن فهمهما ..

- « هل مرض أحد بسبب غير مفهوم بعدها ؟ »

- « لا أحد » - يقول رئيس العمال - « فيما عدا

الذعر لم يحدث شيء غير عادى .. »

- « ولم يبدأ أحد فى التشنج والصراخ أو يشك أحد

من التهاب حلقه ؟ »

- « قلت إن أحدًا لم يمرض .. »

أشرت إلى (مالك) فنى الإشعاع الأمريكى المرافق لنا ، وهو ليس خبيراً لكنه على الأقل يفهم بعض الشيء عن أمن للمستشفيات .. وهو وجه جديد فى (سافارى) أحبه الجميع للطفه وبساطته ، كان قد أخرج أجهزته وبدأ يراجعها ، ثم مط شفته للصغلى سلباً وقال :

- « لا أظن أن هناك إشعاعات هنا .. »

- « والصال ؟ »

مرر الجهاز على جسد رئيس الصال المدهش ، وقال دون أن يعا به :

- « صلبى .. لكن من الوارد أن تكون الإصابة بالغة ولا يشعر بها للجهاز .. لابد من أن يصاب الهدف بنحو ٤٠٠٠ راد كى نجد هذا بوضوح ، ومن يصب بـ ٤٠٠٠ راد لن يقف هنا يثرثر .. »

فيما بعد عرفت أن الراد هو وحدة قياس الإشعاع ، والراد الواحد هو كمية الإشعاع التى تؤدى لانبعاث ١٠٠ إرج من الطاقة لكل جرام من المادة . إن طلبه الثانوى للصاقرة ينكرون هذه التفاصيل بدقة ، أما أنا فلا أذكر منها إلا أحياناً ..

المشكلة هي أننا نتعلم أهم الأشياء ونحن في سن
لا تسمح لنا بإدراك أهميتها . أما الآن فلنا على استعداد
للتضحية بما في جيبى مقابل العثور على نسخة من كتاب
الفيزياء للمصف الثالث للتأوى .. مملكتى مقابل كتاب !

قلت لرئيس العمال :

« دعنا نر مكان الطبق .. »

مشى موكبنا العجيب وسط العيون المحمقة والتمهشة
والساهرة والفاضية ، حتى بلغنا فسحة الخلاء التى قبل
إن الطبق هبط فيها .. كانت رقعة واسعة من الأعشاب ،
لكنها لا تتميز بشيء خاص .. لا توجد أعشاب مهشمة أو
محتركة .. لا آثار من أى نوع ..

« لو كان هذا طبقاً طقراً فهو خفيف الوزن كنبلة .. »

وجئنا للفنى على ركبتيه ، وراح يمرر الجهاز على
العشب .. لا شيء ..

استغرق مسح الرقعة نحو نصف ساعة ، وفى النهاية
نهض الرجل ليغمغم بعبارات خفيفة توحى بخيبة الأمل ،
ثم أشعل لفافة تبغ ونظر لى ، وقال :

« لا شيء .. من الواضح أن شيئاً لم يهبط هنا لو
أنه هبط ولم يترك أثراً .. »

.. « لا بلص .. »

وكانت معنا ممرضة إنجليزية ، أشرت لها وطلبت أن تبدأ الجزء الثاني من عملية المسح .. لابد من عينات بول وبراز ودم من هؤلاء العمال .. بالطبع رحبوا بالجزء الأول والثاني من الموضوع ، ورفضوا الثالث بقلظة .. وقد فُشِنّا كلية في إقناعهم بمد أترعهم لناخذ عينة .. إن الإفريقي - مثله مثل بعض فلاحينا - يؤمن أن كمية الدم في جسم الإنسان لا تتجاوز أربعة سنتيمترات .. بالتالي يكفي ملء المحقن بالدم كي يسقط المريض ميتاً ، وقد خلت عروقه من الدم ..

بالإضافة لهذا كان وجونا مريباً أصلاً ، بلا تفسير . وما كان هؤلاء يمنحون أي شيء . ببساطة للرجال جاعوا من السماء كي يظلموا منهم بعضاً ..

وهكذا لم يعد لدينا شيء أكثر نقوم به .. فلتجهنا إلى الطائرة ، وسرعان ما راح المحرك يهدير وبدأت العاصفة من جديد .. وبدأت الأرض تنأى عنا وهي تهتز .. نحن الذين كنا نهتز .. لكن لاتصن النسبية أبداً ..

يمكن القول إن هذه الزيارة لم تكن مفيدة على الإطلاق ..

٥ - ابحاثوا جيداً يا سادة ..

- « بل هي أداة نفى طبية .. »

قلها (بارتليه) وهو يطلع تقريرى .. ثم أرفف :

- « قد عدم لتخبرونا أنه ما من إشعاعات تخرج من هذا الطبيب الطائر .. وهذا يعادل فى أهميته قولكم إن هناك إشعاعات .. »

كنت أعرف تعبير (أداة نفى طبية) Good Negative الذى يستخدمه الأطباء كثيراً بالطبع ، لكنه لم يرق لى هنا .. يمكننى أن أصف لك مئة موقع ليست فيها إشعاعات فى هذا العالم ، وأولها مطبخ خالتي .. لكن لا أظن هذا يفيد القضية كثيراً ..

سألته وأنا أنهض من مقعدى :

- « هل وجد المعمل شيئاً ذا بال ؟ »

هز رأسه نفياً ، وقال :

- « لا شيء .. لا إشعاعات .. قطعة القماش التى

جلبتها لنا لا تحوى إلا المخاط الجاف .. لو كان هؤلاء
الفضائيون قد قطعوا كل هذه المستويات الضوئية ليفرغوا
توفهم علينا ، فلنا لا أفهمهم على الإطلاق .. »

برغضى ابتسمت ، وقد راقت لى الفكرة ، ثم نشرت
للباب بمعنى (هل يمكننى الانصراف ؟) فهز رأسه أن
نعم .. إلا لئى تذكرت شيئاً آخر ، فسأله وأنا واقف :

- « هل مخالفت من ملأوا ملوثة بفيروس معين ؟ »

قال وهو يعقد أنامله أمام نفسه :

- « نحن فى العادة نجرب أكثر من مرشح .. لفظة

هى أنهم يقومون بتمرير تيار من الهواء المضغوط على
العينة ، بعد هذا يرغم هذا الهواء على اجتياز مرشح
بكتريا لا يسمح بمرور الأجسام التى هى أكبر من ١٠٠
أنجستروم . لو استطاع الهواء الخارج من المرشح أن
يؤذى خنزيراً غريباً ، فمعنى هذا أننا نتحدث عن فيروس
لا بكتريا .. حالياً نحن مستمرين فى تجربة المرشحات ..
للمشكلة هى أن مخالفت الجثث لا تقتل خنازير غريباً ،
ومعنى هذا أنه اختبار لا جدوى منه .. »

- « وهل للبقايا مشعة ؟ »

- « بالعسل للعادية .. لا .. لكننا ما زلنا نتقصى هذا

الاحتمال .. »

- « هل تريدون منى مهمة أخرى ؟ »

- « حاليًا .. لا أظن .. »

ثم تذكر شيئًا فقال :

- « هل تشعر باستفادة علمية هنا ؟ كيف حال

دراساتك ؟ هل حقًا يناسبك دور المعمار الذي نعبد به

أى ثقب ؟ »

لقد وجد من واجبه أن يبدى بعض الاهتمام بمصلحتي

كى يرضى ضميره - أعترف أنه يقط - وكى لا يشعر

بأننى مجرد (مرمطون) يرسلونه للمهام الخطورة أو

الشاقة أو المملة .. قلت له :

- « لا بأس .. لكنى كنت أتمنى أن أعمل فى قسم

الجراحة .. بالذات مع الدكتور (سياتزكى) .. »

ليتمم اهتمامه صبي مبهور وقال :

- « (سياتزلى) ؟ كل وحدة (سافارى) تريد العمل معه .. ولو تفقدت لهم لما بقى عندي من يعمل فى أى قسم آخر .. يبدو أن الإيطالى تعجز بازع حقاً ، ويبدو أن لديه ما يجيده غير قرص الممرضات الحاصلات .. لىكن يا (علاء) .. سأضع هذا فى الاعتبار بعد ترتيبه مع د. (باركر) .. »

تهدت فى رأس .. ما دام الأمر سيهد إلى (باركر) - غراب البين - فلا جدوى .. سيقول كلمته الشهيرة : على الفتى أن يوجد حيث يريد له أن يوجد ، وإلا فإن الكامبيرون لا تفتقر إلى الطائرات العائدة إلى الوطن ..

- « شمر نرايك يا دكتور ، واجلس من فضلك .. »

قالتها الممرضة الفرنسية وهى تنزع المظف عن المحفن .. بدا لى هذا غريباً ، فمن حق كل إسمان أن يعرف السبب الذى يسحبون معه من أجله .. جلست وشمرت الشياى عن أعلى ذارعى ، وتركها تلف أعلى الساعد بالتورنيكيه .. ضغطت بسمائتها ضغطة تتحقق من موضع الوريد ، وظهرت الموضع ثم أولجت الإبرة ..



جلست وشمّرت الثياب عن أعلى ذراعي ، وتركتها تلف
أعلى الساعد بالتورنيكية ..

آى ! وتاملت المحقق يمتلئ بالدم الأحمر القاتى ، ثم إنها
المرغته فى أنبوب اختبار صغير كتبت عليه اسمى ..

فكت للرباط ثم أشارت إلى مجموعة أطباء المناعة
المنتشرين فى معمل د. (شيفرن) ، وأمرتهم بالشىء
ذقه ..

سأله القصير (شيفرن) نفسه وهو يتلقى الإبرة فى
تراعه :

- « آى ! وتقومون بهذا بالنسبة لكل أطباء الوحدة ؟ »

- « نعم .. بل وبعض الفنيين والمرضى كذلك .. »

- « هذا لا يبحث للطمأنينة فى النفوس .. ألا تعرفين
السبب ؟ »

- « لا .. أنا أفعل ما طلب منى .. »

نهض (شيفرن) إلى جهاز الهاتف ، فطلب رقمًا لا بد
أنه المدير ، وراح يتكلم :

- « مرحبًا .. ما هذا الذى يحدث هنا ؟ لم تخبرنى
بهذا .. »

ولنزل كم قميصه وأعاد ارتداء نصف المعطف الذي
انتزعته ..

- « هه ؟ فقر لم عام ؟ غريب هذا .. كم حالة ؟ رباه !
ها نحن أولاء نعود إلى مازق الإشعاع من جديد .. يجب
إجراء مسح شامل لكل الأجهزة المشعة هنا .. نعم ..
أعرف .. ليكن .. ليكن .. أوف فيدر هورين »

ووضع السماعة ونظر إلينا ، ورأى نظرة اللهفة على
الفهم في العيون ، فقال :

- « فقر لم عام .. نقص في كافة مكونات الدم ..
هذه الأعراض ظهرت حتى الآن لدى أربعة أطباء ..
و (هارتلييه) لا يريد أن يترك شيئاً للمصالحات .. »

صاح أحد الأطباء في حماس :

- « لابد من تصرب إشعاعي في مكان ما هنا .. »

- « لا أجد احتمالاً آخر .. إن احتمالات حدوث تسمم
كيميائي واهية جداً »

قلت أنا في لا مبالاة كأن الأمر لا يعنيني :

- « أو هو مريض وبأى جديد لا يعرفه الطب .. »

قال (شيفرن) في ضيق وهو يعود إلى عمله :

- « مرض وبكى لا ينتقل إلى خنازير غينيا ولا بحرق
فرضيات (كوخ) .. هذا احتمال واه جداً يا بني .. »
قلت متفلملاً :

- « لو أن (بنستير) عاد للحياة اليوم ، لأصابه
الجنون .. لم تعد هناك قاعدة واحدة ثابتة محترمة .. إن
الغد يحمل لنا كل شيء .. »

كانت هذه عبارة (شيلبي) بنصها كما قالها في ذلك
الاجتماع .. لكن (شيفرن) لم يلحظ هذا ، وازداد عصبية
وتوترًا .. وأدركت أن للعبارة أثارت اهتمامه لأنه كان
يفكر في الشيء ذاته ..

القيصر يفكر في الشيء ذاته ..

★ ★ ★

لم أعرف للنتيجة بالطبع ، لأنني لمست من جهات تلقى
المعلومات في (مسافاري) ، لكن فيما بعد عرفت ممن
يعرفون الأشياء قبل سواهم ، أن نحو ١٠ ٪ من العينات
كانت موجبة .. لا أعتقد أن عيني بالذات كانت من هذه
العينات الموجبة ، لأنني لا أشكو من أي نوع من الضعف

للعلم .. لكن للرقم برغم هذا مخيف .. واحد من كل
عشرة أطباء هنا يعانى نقصا .. بلا تفسير .. فى خلايا
الدم الحمراء والبيضاء ..

ومن جديد عاد الكلام عن الطبى للطلاب وعزاة
للفضاء ..

هذه المرة كان مصدر الكلام هو العامل الكاميرونى
(جورج) ، وهو مولى على كل حال باكتشاف أشياء
غريبة فى القبو .. بالطبع يعرف الجميع أنه يتصل إلى
القبو ليدخن متظاهرا بأنه يفحص الأجهزة .. وكان
ما وجدته فى القبو هذه المرة غريبا بعض الشيء ..

« كانوا أربعة .. طولهم شنيع حتى إن الواحد
منهم يبلغ قلمتين من قلمة للرجل .. لوئهم أحمر كالدم
ياسيدى .. وعيونهم .. عيونهم طويلة تشع نورا أخضر ..
كانوا يقفون هناك وينتظرون .. وحين رأونى ، رفع
أحدهم سلاحا ما لا أعرف ما هو ، وصوبه على رأسى ،
لكنى اتحنت ، ثم رحت أركض خارجا من القبو .. »

تبادل (باركر) ومساعدوه للنظرات .. هذه الأوصاف
ليست غريبة ..

- « أحضروا رجال الأمن ومن يقوم بقياس الإشعاع
في القبو .. »

وبعد دقائق جاء رجلان أمن إفریقیان يحملان مسنيريهما
وكشافاً ، ثم جاء (مايك) يحمل عداد (جايجر) ، ودون
كلام كثير بدعوا بهبطون في الدرج المؤدي إلى القبو ..

ومن خارج القبو جاء صوت (باركر) - كما في لعبة
المسابقة - يسأل الرجال :

- « هيه ! هل من شيء مريب ؟ »

هنا رد أحد الرجال :

- « هناك الكثير من القنران الميتة يا سيدي ! »



٦ - لا شيء هناك ..

بقيت ثلاثة أيام على وفاة الطبيب الفنلندي (ميهاليل
فلتاري) ..

في الكاليفورنيا ، قابلت (برنات) التي كانت تنتهي من
وجبة الغداء بسرعة توفئة للعودة إلى عملها ..

هزيت رأسي محببًا وكنت أتجه إلى ملقاة أخرى ،
لكنها ناديتني إلى ملقنتها ، وقالت :

« بالله عليك اجلس .. »

وجلست دافنا رأسي في طبق ، ورحت ألثم الطعام
كالحيوت الأرضي ، فسمعتها تقول لي في شيء من
مداعبة :

« هذا هو بالضبط ما أنفرتك منه .. إن الأمور لم
تعد كما كنت .. الآن تفهم أنه كان الأفضل لو ظللتنا
صامتين ! »

هزئت رأسي مؤمناً ولم أقل شيئاً .. الحقيقة هي أن
هناك خرابيح لا بد من التعامل الجراحي معها بدلاً من
إبقائها مزمناً .. ولما لم أفعل سوى أن حاولت فتح
خراحي الخالص ، لكنها لم تعطني الفرصة ..

قلت لي محاولة تغيير مجرى الكلام :

- « هل تعرف أنهم يفتشون القبر الآن ؟ »

نظرت لها في غير فهم ، فابتسمت وأضافت :

- « يفتشون عن كائنات فضائية طولها قامتان ولونها
أحمر .. وهي تطلق سقلاً لزجاً على الناس ولا تمتاز
بالمودة .. »

- « يا لصنف ! »

قلت باسممة وهي تفتح عتبة المياه الغازية ..
فرووش !

- « أنا نفسي أرى هذا الرأي .. إنهم حينئذ يوجهون
الطحنات في الظلام ولا يعرفون مع ماذا يتعاملون ..
لكني أحب أن أرى كيف تعيش هذه الكائنات التي طولها
قامتان في القبر .. إن طول الكائن الوحيد إذن قريب

من أربعة أمتار ، بينما ارتفاع سقف القبو متران ونصف
أو أقل .. لابد أن هذه الكائنات تمشي محنية أو زاحفة
طيلة الوقت ! »

- « أنت على حق . هل جن الجميع ؟ »

★ ★ ★

لأنه رجن للجميع ، لأن عداد (جاجر) بدأ يظهر
نشاطاً زهواً عن المعتاد ، وتوتر الرجال في القبو ..

كان (باركر) رجن جنوناً كلما سمع عن فتران ميتة في
وحدته .. لكنه هذه المرة لم يتلع الخبر ، فهذه فتران ميتة
على كل حال .. لم يكن الوقت مناسباً للوم عمال التطهير ..

من الخارج نادى (باركر) رجال الأمن :

- « هيه ! .. هل من شيء ؟ »

صاح أحد الرجال وهو يكتفم أنفه بمنديل (لأنه حسب
هذه الطريقة للمثلي لاتقاء خطر الإشعاع ، ولا أدرى أى
أحمق نصحه بهذا) :

- « يوجد نشاط إشعاعي هنا يا سيدي ! »

- « جميل ! هل هو زائد عن الحد ؟ »

- « لا يا سيدي .. محدود جدًا »

- « إذن واصلوا البحث في القبر عن مصدره ولا تنهزوا .. »

بالطبع كان هو في أمان بالخارج لا يخاف أثر هذه الإشعاعات على عينيه ونخاع عظمه ومخه وخصيتيه .. وبالتالي كان يرى أن هؤلاء للرجال بطيئون جدًا أغبياء إلى حد ما ..

واصل الرجال بحثهم وسط مواسير التدفئة والتبريد الموجودة في القبر .. كانت هناك بعض الصناديق القديمة ، وبعض الصناديق التي تحوى أجهزة لم تستعمل بعد ، وقد كتبت عليها تعليمات للشحن الشهيرة مع علامات قابل للكسر وهذا الجانب لأعلى .. إلخ .. بالطبع لم تكن هناك كلينات فضائية وإلا لقلت لك .. لماذا أكنم شيئًا كهذا ؟

الحقيقة هي أن الإشعاعات كانت تضعف أحيانًا حتى تختفى ثم تتزايد إلى حد معقول .. لكنهم لم يستطيعوا ربطها بجسم معين .. ونظر أحد الرجال إلى صندوق الشحن وسأل بنقطة التباثويد زمليه :

- « هل يمكن أن يلقى من هنا ؟ إن هذه الأجهزة للكربهة تؤذى دائما »

لم يفهم حامل عدك (جايجر) هذه العبارة ، لكنه قال
حين ترجمت له :

- « لا شيء من هذا .. هذه أجهزة (مونيتور) لوحدة
القلب الجديدة .. لا ينبعث من هذه الأجهزة نشاط إشعاعي .. »
وتشتم للهواء من حوله وغمغم :

- « الرائحة كريهة حقًا هنا .. كأنها رائحة دورة مياه
عمومية »

قال أحد الرجلين وألفه يتمتع متشعما :

- « لا يوجد قبو عطر الرائحة .. ثم لا تنس أن هناك
قنراتًا ميتة .. »

اليتسم (مالك) ، وفكر - بطريقة للرجل الأبيض العنصرية
المتعلية - في أن هذين الرجلين لا يمكن أن يلاحظا
للروائح الكريهة .. ثم راح يتأمل الأرض .. كانت هناك
بعض أكياس نهشتها القنران نهشًا ، لكنه لم يستطع تبين
ما كان بها لقد تبهرت المحتويات واختلطت بالقبار على
الأرض .. والتقى على كل حال يعج بالمهملات والفوضى
كأي قبو في العالم .. إن (باركر) لا يدخل هنا كثيرًا كما
هو واضح ..

ومن الخارج جاء صوت (باركر) :

- هيبه ! هل توفلكم الله جميعاً ؟ «

شتم الرجل من تحت شارب الكس ، ثم رفع عقيرته
صائحاً :

- « لا يا سيدى .. لقد انتهينا تقريباً »

ونظر إلى الرجلين اللواقين ، وأشعل لفافة تبغ سريعة ،
وقال وهو يمتص اللبان فى جشع :

- « من أجل الرائحة فقط .. فلننته الآن من كل هذا
ونخرج قبل أن نصاب بالعصى .. »

ضحك الرجلان فى فهم .. ولتظنرا بضع ثوان حتى
أنهى الرجل لفافة التبغ فى خمسة أنفاس عميقة ، ثم
ألقاها أرضاً ووأدها بحذائه ، وهمس :

- « هيا بنا .. »

بقى يومان على وفاة الطبيب الفنلندى (ميهاليل
فالنتارى) ..

حين بدأت أعراض التهاب الحلق والحمى مع (ميهائيل
فلتاري) كنا نعرف هذه المرة ما علينا أن نتوقعه ..

أدخلوه وحدة العناية المركزة ، وقد فكر المدير في
استعمال إحدى الغرف المعقمة Gnotobiotic التي لدينا ،
لكن هذه لم تبدأ العمل بعد .. وحاولوا قدر الإمكان أن
يهيلوا له بيئة نظيفة خالية من العدوى ، كما حققوه
بالمظلة المعتادة من المضادات الحيوية .. واقترح خبير
أمراض الدم أن يتم نقل بعض الكريات البيضاء مع
الجلوبيولين المناعي ..

قللوا بفحص منه ، واختبروا فضلاته بالنسبة للإشعاع ..
حقًا كان جسده يزخر بها .. لقد تلقى هذا جرعة أعلى
من اللازم كما هو واضح ..

قال (آثر شيلبي) - بكسر الشين وتصكين اللام -
وهو يمرض سيجاره ويحاول أن يبدو رائعًا :

- « إن حمض الـ DTPA قد أظهر نجاحًا سابقًا في
حالات كثيرة .. »

سألناه في خفاء :

- « وما الـ DTPA يا أخ (شيلبي) ؟ »

قال في ثقة :

« إن اسمه طويل جدًا .. إنه (الكالسيوم داي إيثولين
ترايامين بنتا أسيتيك أسيد) .. لقد برهن على قدرة رائعة
في الاتحاد بالمعادن الثقيلة المشعة ، وهو قادر على
توجيهها لتفرز مع فضلات الجسم .. المشكلة هي أنه
ليس موجودًا هنا .. »

« ومن أين نلتى به يا أخ (شيلبي) ؟ »

« من الإنترنت .. سأتصل بإدارة الطعام والدواء FDA
أستعلم منها عن هذا العقار .. بعد هذا يمكن لأية طائرة
أن تحمله إلى هنا من الولايات ، وستقوم السفارة الأمريكية
بتسهيل الإجراءات .. »

ونظر في ساعته وقال :

« أتوقع أن يكون العقار هنا في للتسعة مساءً .. »

وكنا وقتها في العاشرة صباحًا ..

حقًا يتمتع هؤلاء الأمريكيان بالثقة والتقدم .. وقد
سيطروا على معطيات نبياهم بحكمة وبراعة ..

لكن المشكلة هي أنهم لم يفهموا الموت بعد ، ولن

يقهروه .. لقد توفي الطبيب الفنلندي في العاصمة مساءً
بعدما هبطت دورته الدموية تمامًا .. وحين وصل العقار
أخيرًا في طائرة هليكوبتر ، حوالى العاشرة مساءً ، قال
المدير :

.. « لا بأس .. إن لم أكن مخطئًا فلنصرف نحتاج إلى
هذا العقار كثيرًا في الأيام القادمة .. »

في هذه المرة لم يكن يومع واحد أن يرفض تشريح
للطبيب الفنلندي ..

كانت حالة اكتئاب عامة تغمر الوحدة ، وشعور عام
بأننا محاصرون ، وأتينا جمرًا ذاهبون إلى عناية
البروفسور (جيدون) الفاتكة .. لكن الرجل لم يكن
كلحلتوتى الذى يلعب دوره (عبد الفتاح القصرى) فى
أفلامنا .. كان عالمًا بحق وقد أنقذنى علمه من دولمة
الحيرة مرارًا من قبل ..

لهذا تأكدت أنه ما من أحد يراى حتى لا لثهم بقسوة
المشاعر ، وتوجهت إليه فى المشرحة ..

* * *

٧ - مقالة عن الإشعاع وآثاره ..

جالسنا أمامه في رهبة ، سألته :

- « ما الذي يحدث في أجسادنا حين نتعرض إلى

الإشعاع ؟ »

قال (جيبسون) وهو يتأمل المكتب أمامه كلما يتذكر :

- « هذا فرع كامل من الطب .. فرع لم يكن أحد

يعرفه قبل قنبلة (هيروشىما) وتريد أن أخصه لك في

كلمات ؟ »

ابتسمت وقلت :

- « إذا سمحت لي سأحكى لك قصة مسلية .. إنها عن

ملك قوى تشغل في مشاكل الحكم والحروب .. إلخ ..

وفي يوم استدعى حكيم للحكماء وقال له إنه يريد معرفة

تاريخ البشرية .. فتصرف الحكيم وغاب عشر سنوات ثم

عاد بعشر مجلدات ضخمة ، كل مجلد على ظهر حمار ..

فلما رأى الملك المشهد صاح مفضبا : كنت ترى أنه لا وقت

عندي لهذا كله .. اختصر يا حكيم .. اختصر .. اتصرف
الحكيم وعاد بعد خمس سنوات بخمسة حمير على ظهر
كل منها مجلد .. فتوبل من الملك بغضبة معاتلة ودعوة
للمزيد من الاختصار .. هنا اتصرف الحكيم وغاب سنة
واحدة ، ثم عاد إلى الملك بمجلد واحد على ظهر حمير
واحد . كان هذا الأخير قد هرم ووهن بصره ، من ثم
طلب من الحكيم أن يختصر تاريخ البشرية أكثر .. غاب
الحكيم شهرين ثم عاد إلى الملك بورقة واحدة .. ورقة
بها تاريخ البشرية كله . لكن الملك كان على فراش
الموت .. وقال للحكيم : يؤسفني أنني لن أجد الوقت
الكافي لمعرفة تاريخ البشرية .. إن الموت أسرع مني
ومنك .. هل يمكنك أيها الحكيم أن تحكي لي تاريخ البشر
في جملة واحدة ؟ قال الحكيم الذي نهكته الشيخوخة
بدوره : يا مولاي .. للناس ولدوا فعاشوا فماتوا ! كان هذا
كل شيء ومات الملك راضياً .

كما توقعت ، شاعت ابتسامة في وجه (جيليون)
للألمى للصارم ، حتى لتسمع صوت قسملته وهي تنهشم
من جراء هذا للتغير الجيولوجي ، وقال :

- « أنت إذن تريد أن تكون هذا الملك وأنا هذا
الحكيم .. ؟ »

- « لو لم أكن وقفاً أكثر من اللازم .. »

- « لا بأس .. من الجميل أن لعب دور الملك ونومرة ..
لكن تذكر أن الطب غير قابل للتفويض في جملة .. »

لم أفل إن (ابن سينا) العظيم حاولها ونجح في بيته
الشعرين الشهيرين (وكل شيء عند العرب كان يصلح
أن يكون شعراً) :

ثلاث هن من شرك الحيلام وداعية السليم إلى المقام
دوام مدامة ودوام وطء وإنخل للطعام على الطعام

بدأ (جديون) يتكلم ، وحين يتكلم (جديون) على
المرء أن يصفى :

- « يعتمد تأثير الإشعاعات المؤينة على جرعة الإشعاع
ونوعه ومعدل التعرض له ، وبالطبع يكون التعرض
المزمن أخف وطأة من التعرض المباشر الحاد ؛ لأن
الخلايا تستطيع أن تجدد نفسها بشكل أو بآخر .. لكن
- بالطبع - التعرض المزمن يفتح الباب لخلل ناجم عن

تدمير أو تنشيط جينات معينة في الخلايا .. هذه الجينات قد تؤدي إلى الانقسام غير المنظم للخلية وبعبارة أخرى : السرطان ..

« التعرض الحاد للإشعاع بجرعات أكثر من ٤٠٠٠ راد يؤدي لتورم خلايا المخ والتشنجات والصدمة فالموت خلال ٤٨ ساعة .. وهذا هو السيناريو الذي أجد أنه الأمثل لتفسير ما حدث بالنسبة تلك المريض الكاميروني .. الجرعات من ١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ راد تؤدي إلى فقد شديد للسوائل وشلل النخاع ، وفي العادة يكون الموت خلال عشرة أيام .. للجرعات التي تقل عن ١٠٠٠ راد وتزيد على ١٠٠ راد تؤدي لتدمير النخاع فالموت خلال شهر . قد يسبب الإشعاع حرقاً خطيرة أو تدميراً للأوعية الدموية مما يسبب الغثربنا .. لكن هذه الحروق على كل حال ليست أكثر خطراً من حروق الشاي الساخن ، وتعالج بنفس الطريقة ، طبخاً مع غسيل الموضع بالكثير من الماء والصابون ..

« التعرض المزمن للإشعاع - بجرعات أعلى من ١٠٠ راد - تظهر آثاره على الكلى والبروتين والنخاع

العظمى وعدسة العين .. السرطان أيضاً يظهر بشكل واضح في حالات التعرض المزمع للإشعاع لنفس السبب الذي نكرته لك : إهانة الجينات .. والجينات لا تنسى أية إساءة تحدث لها ..

« إن الانشطار النووي لليورانيوم والبلوتينيوم ، يخلق نحو ٣٠٠ نوع مختلف من النظائر المشعة .. بعضها يملك نصف حياة أطول من سواه .. وبعبارة أقرب للفهم : بعضها يعيش أكثر من سواه .. السترونيوم - ٩٠ على سبيل المثال يعيش ٢٨ سنة .. ولهذا هو مشكلة حقيقية بالنسبة لتلوث الطعام والنباتات .. وخطر السترونيوم - ٩٠ هو أنه يتصرف مثل الكالسيوم بالضبط ، لذا ترسبه الحيوانات في عظامها ، والنباتات في جذورها .. وهذا - كما هو واضح - يؤدي إلى سرطان العظام ولدم معا ..

« هذه هي مشكلة ما يسمونه بـ Fallout وهو موضوع مهم بالنسبة لعلماء الانشطار النووي .. إنه أثر سقوط المواد المشعة على التربة واختلاطها بطعام البشر ومائهم .. إن الحكومة الأمريكية لم تصدق أن تجاربها في الصحراء مؤنية ، وظلت تتكرر هذا لفترات طويلة ، حتى صدر أول حكم من المحكمة ، يؤكد علاقة سقوط

للمواد المشعة بعدد من حالات السرطان ظهرت في ولاية
دلتية من موضع إحدى التجارب ..

« ثم جاءت حادثة مفاعل (شيرنوبيل) عام ١٩٨٦
لتكون بمثابة عيد للطب الذرى .. هذا يوم لا ينسى ، وكل
ما تنبأ للطماء به وأنذروا للبشرية ضده ، قد تحقق .. إن
الكهوس حقيقى إذن ولا داعى لدفن الرعوس فى الرمل .. »
سألت (جيديون) وقد بدا لى أنه أنهى محاضرتة
القصيرة :

- « هل وفاة الفنلندى تتدرج تحت هذه القاعدة ؟ »

فكر قليلاً ليزن كلماته ، ثم قال :

- « من الواضح تماماً أنه تعرض لإشعاع جرعة
أكثر من ١٠٠ راد ، على فترة طويلة ممتدة .. نفس للشئ
ينطبق على خنازير غينيا التى قتت أنت بتشريحها .. »

- « والبقيأ .. هل هي خطرة ؟ »

- « نعم .. لكن ليس على المدى القريب إذا كنت تخشى
هذا .. ومن رأى أنه يجب دفنها تحت الأرض وسط
لخرسانة بحيث لا تؤثر على أية حياة نباتية أو حيوانية .. »

فكرت فى السؤال التالى :

- « هل حقًا تعتقد أن حمض الـ DTPA مفيد لهذه الحالات ؟ »

لم يكن مولعًا بـ (آرثر شيلبي) .. أو لنقل إنه لم يهتم به حبا يومًا ما ، لكنه كان يحترم عقله .. قال لي :

- « (شيلبي) بطبيعته مبهرج الأسلوب ، مولع بالحلول المصيرية .. ولو لم يكن طبيبًا لصار أفضل مقدم فقرات في السيرك .. إن (الكالسيوم داي إيثيلين ترايامين بنتا أسيتيك أسيد) حل جيد .. ربما هو الحل الوحيد ، لكنه يؤدي إلى فقدان الزنك من الجسم .. والزنك عنصر حيوي .. إن نقصه قد يؤدي إلى فشل كلوي أو نزف معوي لا يمكن إيقافه .. بالتالي لا يمكن أن يطول أمد هذه المعالجة ، وبالتأكيد هي أخطر أحيانًا من الإشعاع ذاته .. »

بعد برهة صمت أخرى سألته :

- « ما رأيك في موضوع غزاة الفضاء هذا ؟ »

قال في زلّة :

- « لا أرفضه ولا أقبله ما لم يأتني أحدهم بدليل واضح .. وعلى قدر علمي لا يوجد دليل على طبق طائر فضلاً عن كونه مشعاً .. »

وأشار بكفيه للمفتوحتين إلى كومة الأوراق أمامه
وقال :

- « لديك هنا مشاكل .. كومة من المشاكل الحقيقية ..
يمكنك أن تتعامل معها وتتسبى كل شيء عن أى شيء
آخر لا تؤيده القرائن .. لديك حالة تلوث إشعاعى واضحة
فى (سفارى) .. وهذا الإشعاع يتراوح من ١٠٠ إلى
٤٠٠ راد .. عليك إذن أن تجد الحل .. »

- « ومن الذى يملك هذا الحل ؟ »

- « الأمر أكبر منا .. لا بد من أن يقوم أحد هؤلاء
المتنبهة فى الإدارة بالاتصال بـ (ياوندى) .. تريد خبراء
فى الطاقة الذرية .. »

ثم نظر فى ساعته وقال فى صرامة :

- « هل قمت بتلخيص تاريخ البشرية فى جملة
واحدة ؟ »

- « أعتقد هذا يا سيدى .. لقد فعلت هذا أو كنت »

- « إذن .. أنصرف ! »

★ ★ ★

٨ - المسح ..

بعد يومين سمعت طرقات على باب حجرتي في الصباح الباكر ، ففتحته فقط لأجد أغرب مجموعة من رواد القضاء في حلهم البراقة .. مشهد غريب جدًا في الصباح .. وتكفل النعاس بجعلني أتوهم للحظة أن هؤلاء من غزاة القضاء ، وأنهم جاءوا من الطبقة الطائر إياه .. ثم تكلم أحدهم من وراء قناعه وكان صوته عميقًا مكتومًا :

- « لا تخشى شيئًا .. مهمة روتينية .. »

كيف لا أخشى شيئًا وهذه المجموعة العجيبة تقف حجرتي ، وقد تكفلت ثيابهم بجعلهم لا يمتنون للبشر بصلة ؟ على أنني فطنت إلى أنهم في الغالب من رجال الطاقة الذرية ، وفي الغالب من (ياوندى) شخصيًا .. إن (بارتلييه) لم يضع وقتًا أكثر وبالتأكيد أمطر (ياوندى) بالاستغاثات الملحة ..

قاموا بمسح الحجرة مسرعين بجهاز ما ، واهتموا



بعد يومين ، سمعت طرقات على باب حجرتي في الصباح
الباكر ، ففتحتة لأجد أعرب مجموعة من رواد الفضاء ..

بأصغرتي بشكل خالص .. إذ قلبوا كل حذاء وراصوا
يلحصون القبار الملتصق بالثعل .. بدا من روثينية
حركاتهم أنهم لم يجدوا شيئاً ، وأن هذا تكرر في أكثر
من حجرة ..

لم تبين بوضوح جنسيتهم من وراء الأقنعة ، لكن
بدا لي أن اثنين أو ثلاثة منهم غربيون .. وفي النهاية
شكرني أولهم بلهجة مهنية وفرنسية تشي بأنه فرنسي ،
وقمصهوا من المكان ..

* * *

يا له من حصار يا إخواتي ! لكم أن تراهنوا على أن
المشهد كان رهيباً حين خرجت من حجرتي .. هؤلاء
الرجال في كل مكان يلحصون كل شيء ، حتى تنكرت
غزو تلك المجموعة من المرتزقة للوحدة منذ عام ..

بعد قليل جاعني (بسام) وعلى وجهه علامات الاستمئاع
وسألتني بالصبحى كعادتنا في التخاطب :

- « هل رأيت هذا المسيرك ؟ »

- « رأيت ولا أشعر براحة على الإطلاق .. »

أشار إلى الوراء وقال وهو بهز كتفيه :

- « يشكون في وحدة القسيل الكلوي .. »

- « سيكون هذا غريبًا .. وحدات القسيل لكلوي

لا تستعمل المواد المشعة .. »

- « لا أرى الصر ، لكن من الواضح أن عاداتهم

تشير إلى نشاط إشعاعي بالغ القوة هناك .. »

بعد ثوان ظهر (بارتلييه) مرهقًا يادي التوتر ، ومر

بنا قلم نظفر منه إلا بنظرة عابرة .. كأنما لم يدرك كنهها
قط ..

كان (سياتزقي) استاذ الجراحة الإيطالي يمشي

خلفه - مرتبًا بجمامة الجراحة - ويلوح بتراعيه في

الهواء صليحًا :

- « مام ماميا ! كله إلا قسم الجراحة يا (مورييس) ..

كله إلا الجراحة .. إن لدينا قائمة مرهقة للعسل اليوم ! »

قال (بارتلييه) دون أن ينظر للوراء :

- « لقد قررت إلغاء جميع الجراحات .. أنت لا تفهم ..

إن الأمر أخطر من تلوث بالكزاز .. إن »

ثم نظر للوراء فوجد أن عند الأوغاد الذين أرففوا
أذانهم للسماع أكثر من اللازم ، فتوتر .. مد يده بمسك
يكتف الجراح الإيطالي ، وبدأ يتكلم همسا هذه المرة ..
كان من الواضح أن الإيطالي غضب بجنون ، وأن المدير
يحاول امتصاص غضبه هذا .. بالطبع لم يكن مقر من
إلغاء الجراحات حتى إعلام آخر .. إن الإشعاع ليس من
الأمور التي يمكن للمزاح فيها ..

فيما بعد بدأت الأخبار تتسرب أكثر فأكثر ..

يبدو أنهم وجدوا إشعاعات في غرف القليل للكلوى ..
إشعاعات لم يستطيعوا تحديد مصدرها ، ولكنهم حين علونوا
الفحص في الظهيرة لم يجدوا شيئا .. نفس الشيء تكرر
مع غرف الجراحة .. والآن بدأ الشك يحوم حول قسم
الأشعة ، لكن أجهزة الأشعة كانت محكمة ، وكانت الغرف
مبطنة بالرصاص جيدا بحيث لا تسمح بأي تسرب ..

ثمة إشعاعات تنبعث من القبو - كما قلنا من قبل -
لكنهم لم يجدوا مصدرها .. في النهاية وجدوا مجموعة
من الأكياس الممزقة السوداء التي مزقت القنارن
محتوياتها .. لم يستطيعوا تحديد ما كان فيها ، من ثم

حصلوا البقايا ووضعوها في عيس واى .. فالحقيقة
الوحيدة هنا هي أن هذه البقايا كانت مشعة بقوة ..

وفي المساء دعانا - كل أفراد الوحدة - (بارتلييه)
إلى اجتماع به في (للتيتور) ..

قال لنا وقد وقف على المنصة بداعب مكبر الصوت
بألمه :

- « اعتقد أنكم جميعا تعرفون ما يحدث هنا الآن ..
لو لم تتضح الأمور أكثر في الغد ، سيكون من واجبى
إنهاء العمل في وحدة (سافاري) .. إن مهمتى هي
الحفاظ على حياة الموجودين هنا ، كما هي الحفاظ على
حياة مرضعنا .. »

قال أحدهم في حلس :

- « نحن لن نتراجع عند أول خطر يهددنا .. »

كان أحمق ، وودت لو عرفت من هو ذلك الأحمق ،
لكنى لم أثبتنه .. إنه يحسب الحماس وحده كافيا لمقاومة
الإشعاع ، ولو صح هذا لتلشى خطر القتل الذرية
تماما .. كل ما على القوم الذين تهوى عليهم قبلة ذرية

هو أن يتحمسوا .. ولحسن الحظ لم يول (بارتلييه)
هذا الكلام اهتماماً ، وقال :

« لنا تحمل مسئولية الجميع ، وقد اتخذت قرارى .. »

هنا رفعت (برنات) يدها طالبة الكلمة .. وكان
هذا غير معتاد لأن من يتكلمون فى هذه الاجتماعات
لا يزيدون على أربعة فى الغالب .. وكلهم من سن ووطن
(آرثر شيلبي) فصاعداً ..

نظر لها المدير متسللاً .. فرفعت صوتها الذى خرج
حادثاً متحسراً بعض الشيء ، شأن للممثلات المبتدئات :

« سيدى .. هل لنا أن نعرف بالتضبط ما توصل
إليه الرجال الآتون من (ياوندى) ؟ »

قال (بارتلييه) فى تعاسة :

« توصلوا إلى أن الإشعاعات تظهر وتختفى فى كل
مكان بلا سبب ، وتتباين قوتها من حين لآخر .. »

« وهل لديهم تفسير لهذا ؟ »

« لم يقولوا شيئاً .. إنهم ميسرسون النتائج
ويخبروننا .. »

- « قيل إنهم وجدوا بعض الأكياس الممزقة في القيو .. فهل عرفتم ما كان بها ؟ »

ابتسم المدير في تعب ونظر إلى السقف وقال :

- « فضلات آدمية ! »

- « ماذا تعنى ؟ »

- « برار ! إذا كان هذا القول لا يتنافى مع اللياقة .. لقد دفعت الفئران ثمن شراحتها غالباً لأن الفضلات كانت مشعة ! »

تصاعدت صيحات الدهشة .. وتربست الكلمة كريمة الرقحة بكل اللغات .. ما معنى هذا لو كان له معنى ؟

قالت (برنادت) في لهجة واثقة برغم وهن صوتها :

- « الأمر واضح .. إن مصدر الإشعاع يتحرك .. إنه بيتنا II »

- « بيتنا ! بيتنا ! »

ساد الهرج والمرج وراح الكل يتكلم في صوت واحد

بأكثر من لغة .. لا بد أن عبارة (بيننا) قيلت بألف لغة
الآن .. هنا وجد (هارتلييه) نفسه مضطراً إلى أن يقرع
المنضدة مراراً بكفه كقاض حازم ، وصاح :

- « الهدوء ! أنا لا أسألكم الكثير ! »

ثم نظر إلى الطيبة الكندية المتحمسة وتساءل :

- « هل تعتقدين أن هناك من يشع بين هذا للطاقم
ياد. (جونز) ؟ »

لبتعت برغبتها لغرابية الفكرة ، وقالت في كياسة :

- « بل إن هناك من يحمل مصدر الإشعاع ويتخلص
منه من حين لآخر .. تارة يدنو من أجهزة القياس وتارة
يتأى .. لا يوجد تفسير آخر لإشعاع يغير مكانه وجرعته
من حين لآخر .. »

هنا نهض (شيلبي) في عصبية وقال وهو مضغ
سجاره :

- « هذا تهريج علمي بلا شك .. لا أحد يمكن أن يحمل
مصدراً للإشعاع دون أن يموت به .. ما لم يرتد ثيابنا
واقية من الرصاص طبعا ، ولا أحصب أحداً في (سافاري)
يرتديها الآن على قدر علمي .. »

من جديد لظفر (بارتلييه) إلى (برتانت) وسألها :

- « وهل لديك اقتراح معين يا د. (جونز) ؟ »

قالت على الفور :

- « أرى أن يخضع كل أفراد (سافاري) لفحص مدقق

أمام عداد (جايجر) ، وليكن هذا الآن قبل أن يجد واحد

فرصة لإفراغ جيوبه .. هل يمكن ترتيب هذا ؟ »

سألت الصمت .. ثم بدأت الهمهمة والضوضاء ..

أخيراً مال (بارتلييه) على المنضدة ، ونظر إلى (مايك)

فنى الأشعة الأمريكى ، والذي جعلته الضرورة خبير

الإشعاع الأهم بالنسبة لنا .. وقال له :

- « ما رأيك يا (مايك) ؟ »

ابتسم (مايك) من وراء شاربه للكث ، فهو مستمتع

بكونه صار أهم شخص فى الوحدة فى الفترة العاضية ..

وقال وهو يتأهب للنهوض :

- « لحظة واحدة وأعود يا سيدى .. »

تعللت أصوات الاحتجاج ، وبالطبع راح للبعض

يتكلمون عن خصوصيتهم وعدم قبولهم للتفتيش الذاتي
وما إلى ذلك ..

هنا قال (بارتلييه) في سرعة بديهية لم أعتدها منه
قط :

- « لو كان أحد في هذه القاعة يرى من حق الإنسان
أن يكون مصدر إشعاع ، فليرفع يده اليمنى .. »
طبعًا لا أحد .. فعاد يقول :

- « ولو كان واحد يرى أن الوقوف أمام عداد
(جاجر) إهانة فليرفع يده اليمنى .. »

طبعًا لا أحد .. وما لزوم هذه الضوضاء إذن ؟ إن
الناس لا تكف عن السخف ، ولقد طلب ابن (جحا) من
أبيه أن يعلمه الصناجة فقال له : « تعالى على الهلالية
ولتصدر » .. أي اهتم أكثر من اللازم بالأمور التافهة
لتضمن لنفسك مكانًا بين السخفاء ..

أخيرًا عاد الأخ (مايك) بجهته للثمين ، وبأمر من
(بارتلييه) نهضنا ووقفنا في صف طويل .. وراح كل منا
يمر أمام الرجل الواقف أمام الباب والممسك بالجهاز ..
هنا يقول (مايك) بلهجة من يمنح العفو :

— « نظيف .. »

فيخرج للرجل وهو يتهدد الصعداء ، أو يرفع ذراعيه
بحركة مسرحية توحى بنظافة الذيل ويخرج عائداً إلى
عمله ..

وجاء نور (برنات) فوقفت أمام الجهاز وتلمنته
كطفلة مبهورة ، وسألت الرجل :

— « ألا يصدر هذا العداد صوت أزيز حين يشعر
بالإشعاع ؟ »

— « ليس في هذا الطراز .. إتني لقرأ اتحرلف الإبرة
فقط .. »

وتدرجياً فرغت القاعة ممن كانوا فيها .. ربما
بامتناء (بارتلييه) وأنا و (باركر) ..

اتجه الرجلان إلى الجهاز في أريحية كلما يضربان
المثل للأجيال للقائمة ، فلم يكن أحدهما مشعاً .. وممرت
بدوري لأسمع كلمة (نظيف) .. ثم خطوت إلى خارج
القاعة حيث كان الجميع تقريباً واقفين يتحدثون
ويعزحون ، وقد راق لهم هذا الموقف الدرامي الذي
يكسر روتين الحياة الممل ..

هنا صاح (باركر) في عنجهية :

- « قلبيد كل إلى عمله .. ولستوف تطلبكم لو حدث
تعديل في خططنا .. »

وصاح المدير وهو يتكحرج نحو مكتبه :

- « ربما تبدأ إخلاء الوحدة غذا عند الظهر .. سيبلغكم
د. (باركر) بالتفصيل .. »

هنا تذكرت شيئاً فلهقت بالمدير صائحاً :

- « سيدي .. ثمة أمر نسيناه .. »

سألني وهو مستمر في التذحرج دون أن يتوقف :

- « وما هو يا (علاء) ؟ »

.. « موضوع الطبق للطير هذا ، ولماذا بدلت للتغيرات
بعده .. »

قال مقتظاً :

- « لقد فعلنا ما بوسعنا ، لكننا لم نجد سوى كلمات
بعض العمال الأفارقة .. قل لي يربك ماذا أفعل ؟ »
كانت أعصابه حقاً مرهقة ، لذا أثرت الصمت قبل أن
يتفجر في ..

★ ★ ★

٩- فلنفتش حاجياته ..

كانت واقفة في الحديقة في ضوء الغروب الغريب ..
الضوء الذي يستعصى على التصنيف والوصف ، والذي
أضنى الفئتين الفرنسيين التأثيريين في نهاية القرن
الماضي .. هل هو أزرق ؟ هل هو أحمر ؟ هل هو
قرمزي ؟ هل هو خليط من هذا كله ؟ وكان الحل الوحيد
الذي وجدوه هو أن يستعملوا (باليتة) ألوان لا يمكن
وصفها بدورها .

كلت واقفة هناك ، وكانت تكخن .. الدخان المتصاعد
يصطبغ بلون الغروب الغامض ، فيخلق رؤى لا تمت
لعالمنا هذا .. الحقيقة أنه من النادر أن يرى المرء
(برنات) تكخن ، لكنها لا تنكر أنها تغطيها من حين لآخر ..
ربما تشعل لفافة تبغ كل ثلاثة أشهر .. والسبب في هذه
المرّة واضح : إنها في حالة حيرة واكتئاب شديدين ..

بنوت منها في حذر ، متعبين أن أقطع صلاتها للصامنة
هذه أو رحلتها في عوالم المجهول .. وبقشعريرة مناسبة
تنكرت قصيدة (إيليا أبو ماضي) العالمة : « سلمى بماذا

تفكرين ؟ سلمى بهذا تحلمين ؟ » .. كنت أهتم بهذه القصيدة
حباً في مراهقتي ، برغم أن كتاب محفوظات الوزارة أصر
على أنها (زفت) .. والسبب هو أن الوزن يحتم ألا يكون
هناك تشديد على الكاف في (تفكرين) .. بينما فعل
(تفكرين) - يسكون الكاف غير المشددة - لا وجود له
في العربية .. ولو جرؤت وقتها وأعلنت أنني أحب هذه
القصيدة لظلت في المدرسة الثانوية حتى اليوم ..

كان من الممكن أن أرحل لكني لم استطع مقاومة
فكرة اللثو من (برنات) في هذه الحالة من الذوبان
في لجة الشرود .. سألتها همناً وقد أدرجت أنها لاحظت
وجودي فلم تجفل :

- « سلمى أ (برنات) .. بهذا تفكرين ؟ »

أطلقت سحابة من اللخان وسعت ، وقالت :

- « في كل هذا البحث الذي نعيشه الآن .. »

بالطبع .. لا يمكن أن تختلي بنفسها الآن لتفكر في
سر هجرات الطيور ورحيل القصول .. وكنت أخشى أن
تحسبني ساعود لتقديم عرضي السابق ، لذا قررت أن
أنصرف حالاً .. لكنها استوقفتني سائلة :

- « (علاء) .. كيف يعلن عدك (جارجر) عن وجود إشعاع من حذمه ؟ »

قلت لها وقد فلجأتى السؤال العجيب :

- « كنت أحسبه يطلق صوتًا .. نوعًا من البيب بيب .. لكن من الواضح أن عدلنا لا يفعل .. »

أطلقت سحابة أخرى ، وقلت وقد لزدك وجهها إظلامًا ..
كلما يذوب فى الليل للوشيك نفسه :

- « لم يجر (ملك) فى الأشعة الاختبار على نفسه ..
ماذا لو كان هو مصدر الإشعاع ؟! »

توقفت عن الحماس ، ونظرت لها محاولاً فهم ما ترمى
إليه .. حتى لو كان للضوء كافيًا فلقموض ظلامه الخاص :

- « إن (مايك) يقرأ للجهاز جيدًا ولو تبين وجود
إشعاع لكان قد »

- « وماذا لو كان يخدعنا ؟ إنه الوحيد الذى يستطيع فهم
معطيات الجهاز ، والجهاز لا يعطى صوتًا مميزًا لوجود
إشعاع .. كيف نعرف أنه نظيف حقًا كما يقول لنا ؟ »

تصلبت فى مكثتى ..

هذه ناحية أخرى من التفكير لم تخطر لي بهال قبط ..
ماذا لو كان بخدعنا ؟ كيف تعرف أنه نظيف ؟ غريب هذا
لكنه لا يخلو من المنطق ..

★ ★ ★

سلمى بماذا تفكرين ؟ سلمى بماذا تحلمين ؟
إلها - ببساطة - تفكر في عداد (جالجر) ..

★ ★ ★

سألتها متردداً :

- « هل .. هل وجدت ما يثير ريبك فيه من قبل ؟ »
قالت وهي تنظر إلى الليل الإفريقي الذي بدأ يسيطر
بقوة على الأحراش البعيدة :

- « لا أدري .. إنه وجه جديد أولاً .. ثانياً هو الوحيد
الذي يعرف شيئاً عن الإشعاع الذري ، وكل معلومتنا
مستقاة منه .. ثالثاً : لقد كان يتفقد الوحدة مع رجال
الطاقة الذرية القادمين من (ياوندى) .. »

- « حقاً ؟ هل كان يرتدى بذلة واقية ؟ »

- « لا .. كان يلحق بهم أو يتقهقر .. يدنو ويتعد ..
ومع دنوه واجتماعه كان المؤشر يثب لأعلى ولأسفل ..
وكان صوت البيب يبيب ينبعث من أجهزتهم .. لكنهم لم
يفهموا ، ولم يفهم هذا أحد .. في البداية دخلوا وحدة
الفسيل الكلوي ، وكان ينتظرهم بالداخل .. عندها بدأت
الأجهزة تصدر صوتاً .. فلما عدوا بعد ذلك لم يدخل معهم ،
من ثم ظلت الأجهزة ساكنة .. نفس الشيء تكرر في قسم
الجراحة .. إلخ .. صدقتى هذا هو التفسير الأوحى .. »

ظلت صامتاً عاجزاً عن التفكير الصحيح ، ثم قلت لها :

- « وكيف لا يموت هو نفسه ؟ »

- « لا أعرف .. ثمة ثغرات في كل نظرية ، وحتى

النظرية النسبية ذاتها .. »

- « ولماذا يفعل ذلك ؟ »

- « لا أعرف .. ثمة ألغاز في كل مكان من العالم ..

فلماذا يكون هذا الرجل استثناء ؟ »

- « وماذا يجب عمله ؟ »

- « تفتيش حاجياته طبياً .. حين يتعد عن غرفته

لفترة مطمئنة .. إن الحمام أية غرفة في (سافاري)
عملية هينة كما جربنا جميعا .. »

مبالتها في غباء :

- « وكيف نبعده عن غرفته ؟ »

- « لهذا صارحت المدير بأفكاري ، بالطبع استثيت
موضوع نية التفتيش هذه .. وطلبت منه أن يستدعي
(مالك) إلى مكتبه لاستجوابه عن بعض التفاصيل ..
معنى هذا أن (مالك) سيكون في مكتب المدير لمدة
نصف ساعة على الأقل ، ومن المؤكد أنه لن يغادرها ..
ولهذا أنتظر أنا هنا حتى أسمع من يستدعيه خلال
مكبرات الصوت .. »

ثم التمت عيناها في الظلام ، وقالت بلهجة من لن
يرفض له طلب :

- « أما وقد عرفت الأمر الآن ، فلا أرى ما يمنع أن
تقوم أنت بهذا .. إنها كما ترى مهمة رجل ! »

حقاً هي مهمة رجل .. لكن لماذا لقبها ؟ هل لأن
الشكوك متبعة أم لأن (برنات) هي من طلب ذلك ؟
لا أرى وإن كنت أفضل أن يكون للجواب هو الأول ..

أفضل ألا أكون معدوم الإرادة ، وأن تكون خيارتي هي
خيارتي لها .. وليدة قناعتي الخاصة أنا ..

قلت لها وأنا أملا صدري الضيق بهواء الليل :

- « لن أترك تجربتين شيئاً كهذا .. ليكن .. سألح
دور الأحق .. ولكن متى أتحرك ؟ »

هنا سمعنا صوت مكبر الصوت يدوي من داخل
البنية :

- « الفنى (مايك نورتون) مطلوب فى مكتب
المدير حالا »

★ ★ ★

بعد دقائق كنت أقف على باب حجرة الرجل .. أنظر
إلى اليمين واليسار فلا أجد إلا ممراً خالياً يقصره ضوء
التيون الخافت .. أمد يدي فى جيبي بحثاً عن المفاتيح
الثلاثة : مفتاحى ومفتاح (برنادت) ومفتاح (بسام) ..
لا بد أن يفتح الباب بواحد منها .. لا أظن (مايك) اتخذ
حذره أو لاحظ هذا لأنه وجه جديد على (سافارى) ،
وبالتأكيد لا يعرف القاعدة الشهيرة : كل مفتاح يفتح أى
قفل ، وإلا فإن أقرب ذيل سحلية يؤدى الغرض تماماً ..

فشل مفتاحي ومفتاح (برتلات) ، لكن مفتاح (بسلام)
أدى للغرض تمامًا ..

وبلغت إلى الغرفة ..

ولم أكن أعرف أن (بارتلييه) يصاب بنوبات قلبية
أحيانًا ..

ولم أكن أعرف أنه مر بإحداها من دقائق ، وأنه
وضع قرصًا من (النيتروجلسرين) تحت لسانه وجلس
منهًا والعرق يتلصق من جبينه وأعلى صدره .. أثناء
تصفير أن والكم يتراجع ببطء من كتفه الأيسر الذي كاد
يصير مملكة محتلة ..

هنا سمع صوت السكرتيرة عبر الدكتهون تخبره أن
(مالك نورتون) ينتظر بالخارج ..

- « (مالك) من ؟ »

- « فني الأسمعة يا سيدي .. لقد طلبت مقابلته .. »

فك ربطة عنقه ونس إصبعًا بين لحم عنقه الشحيم
والبلانة ، ثم قال لها بصوت حائل أن يكون طبيعيًا :

.. « لا أستطيع لقاء الآن .. قولى له أن .. »
فى .. فى العاشرة صباحًا .. »

وسمع السكرتيرة تعذر لـ (مارك) فى الخارج ،
وشعر بأن حاله أفضل نوعًا ..

كنت أنا فى الغرفة إذن أتلقدها على ضوء الكشاف
للصغير الذى فى جيبى .. لست راغبًا فى استعمال
للضوء الكهربى حتى لا يشعر أحد بالخارج بأن هناك
شيئًا غريبًا ..

كانت حجرة عالية جدًا ككل حجرات (سافارى) ولا تحمل
طابقًا شخصيًا مميزًا .. هذا الرجل لا يعطى صورًا تروق
له أو يضع تذكارات مهمة هنا وهناك ..

اتجهت إلى خزانة الثياب وفتحتها .. بضعة معاطف
معلقة وبعض الثياب و هنا لا حظت شيئًا غريبًا فى
أسفل الخزانة .. كأنه رأس مقطوع .. رأس مقطوع هنا ؟
كما يفعلون فى أفلام الرعب حين يضعون الرأس
المقطوع المستحوذ فى الثلاجة .. إن (برنات) تتوقع
لشيء غريب هنا لكن إلى هذا الحد !!



هنا لاحظت شيئاً غريباً في أسفل الخزانة .. كأنه رأس مقطوع ..

أحتيت أكثر فأدركت أن هذا ليس سوى رأس دموية
مما يضعه حلقوا النساء في محلاتهم .. رأس تثبت عليه
جمة من الشعر الأشقر الكثيف .. غريب هذا ! إذن
(مايك) يضع شعرا مستعارا .. والأسوأ هو ما رأيته
مثبتا إلى الرأس في منتصف الوجه .. خصلة شعر لها
مظهر الشارب .. شارب أشقر كث .. شارب يشبه شارب
(مايك) بالضبط ..

لو كان هذا هنا فما لون شعر (مايك) الحقيقي ؟
ولماذا يثبت شاربًا مستعارًا ؟ وما الذي يضعه على رأسه
الآن إذن ؟

راح قلبي يخلق كالطبل ، بينما أحاول العثور على
أشياء أكثر في هذه الخزنة الغريبة .. لم أجد شيئًا آخر ،
فقررت أن أستكشف الحمام ..

كانت الغرابة الحقيقية تبدأ هنا بحق ..

أولاً كان يملك ما يشبه (قصرية) الأطفال موضوعة
في ركن المكان .. وقد غلف قاعها برفائق الألومنيوم ..
يتطبع كي يسهل تغليف الفضلات والتخلص منها ..
وكانت هناك قارورة صغيرة تشبه ما يوجد في المعامل ،

وقد امتلأت بمسائل من الواضح أنه بول .. هذا رجل من الطراز الذي يحتفظ ببوله وبرازه خارج الحمام ولا يتخلص منهما بسبيل المجارى العادى .. أنا لم ألق كثيرين من هذا الطراز ، ولا أفهمهم للبتة ..

ثم كنت هناك صيدلية معلقة على الجدار ، فتحتها فوجدت بعض الأدوية الضرورية المعتادة للملاريا والأميبا إلخ .. لكن كانت هناك بعض للطب الغربية التى لم يكتب عليها أى شيء على الإطلاق ، اللهم إلا عبارة :

(هذا الدواء تجريبى وليس للاستعمال التجارى -
بتصريح خاص من إدارة الطعام والدواء FDA) .

وكانت تحوى أقراصا لم أر مثلها من قبل ..

كان ذلك عندما سمعت صوت من يفتح الباب ..

★ ★ ★

« وداعا يا أبى أرجوك صلّ من أجلى ..

لقد كنت أنا وصمة عار الأسرة ..

حاولت أن تعلمنى الصواب من الخطأ ..

خمر كثيرة .. غناء كثير ..

يدهشنى كيف تعلمت مع الحياة .. »

سمعت صوته يترنم بهذه الأغنية الإنجليزية العتيقة
وهو يقف الباب خلفه ..

الآن تدفق الأدرينالين أنهاراً في دمي ، وصرت على
استعداد للوثب .. للركل .. للصراخ .. للعض .. للقتل ..

بينما هو مازال يترنم :

« وداعاً يا أصدقائي ..

من الصعب أن أموت ..

بينما الطيور تغرد في السماء .. »

أسمع صوت انتزاع ثياب وتطويدها .. ثم باب الحمام
ينفتح ..

الآن أنا واقف - في أسوأ حال - وراء ستار من
البلاستيك يحيط بالمقطن .. لم يكن هنا مقطن لكنها
بالوعة في الأرض تحت الدوش .. وكنت أعرف أن
الأحمق سينتهي يومه بالاستحمام ..

« وداعاً يا صديقي المخلص ..

لقد عرفنا بعضنا منذ كان عمرنا تسعاً وعشراً .. »

كان يلف أمام مرآة الحمام يندفن لنفسه كمادة كل من
يتخلون الحمام ، وجروئت على أن أطل قليلاً من وراء
الستار لألقى نظرة .. صدمنى الرأس الأصلع والوجه
الخالى من الشعر تماماً .. كتبت أنفاسى وعنت إلى
مكمنى .. إن (مايك) أصلع تماماً .. ولا بد أن لديه
جنتين وشاربين مستعارين على سبيل (الغيار) كما يملك
المرء سروالين إن كان ثرياً ..

وأعنت تأمل موقفى ..

إن جوارى هنا سلاحاً هو أداة لمصح البلاط الصبلى
يدار بها وراء ستار المغطس .. لو بقيت مكنتى فلعسوف
يحدثى وعندها إما أن يتخلص منى - لو كان موقفه غير
مشروع - لو استدعى الأمن ويملا الدنيا صراخاً لو كان
موقفه مشروعاً .. كلا للحالين لا أحبهما ..

وهكذا اتخذت قرارى ، وهو ما زال يوليتنى ظهره ،
ولا أصيب فيه سيرى وجهى فى المرآة ..

أمسكت العصا بكتا يدي ، ثم أرحت الستار ..
وهاآآن .. بكل ما فى ندى من أدرينالين جريت نحو
الرجل الأصلع الذى يتأمل وجهه باستمتاع فى المرآة ،

.. وهويت على مؤخرة رأسه بالقصا .. داعيا الله أن تكون
الضربة قوية بحيث يفقد وعيه ، وألا تكون قوية إلى حد
أن تجرحه ..

« وداغا يا أبى أرجوك صل من آى !! »

شعرت به يتهاوى من ورائى ، ولما أفتح الباب فأناب
إلى الخارج .. عنى تقع على الجعة الملقاة على القراش ..
أفتح الباب سريعا وأناب إلى الخارج ، وأوصده خلفى ..
حمدا لله لا يوجد أحد هنا .. وإلا صار تفسير موقفى
عسيرا بحق ..

حين ألقى (برنات) ستكون لدى بعض أسئلة
حاسمة عن براعتها فى التخطيط ..



١٠ - قيس من الضوء ..

وقالت لى (برنات) وهى تفتح باب غرفتها :
- « تعالى .. إن الإنترنت هى السبيل الوحيد للإجابة
عن كل هذه الأسئلة .. »

ومشيت وراءها عبر الغرفة التى لم أدخلها قط فى
حياتى .. الغرفة التى اعتيرتها مقدمة وملأها خيالانى
بكل طريف نفيس من الغرائب .. هاتان قدمائى تطآن
الموكيت الوردى الذى تحبه (برنات) كثيرا ، وثمة
رائحة عطرية غريبة يفوح بها كل شيء .. قد تبدو
رومانسية بلهاء أن أقول إن هذه رائحة أنفاسها ، لكنها
الحقيقة ، فصفاها كما تريد ..

لو كنت الظروف مختلفة لتكلمت عن غرفة (برنات)
وكتبت ألف بيت شعر ، وأربما جمعت ملاحظاتى عنها
فى كتاب من ألف صفحة يضاف لتراث البشرية الأبدى ،
أما الآن فأنا فى مزيج لا يصلح إلا للجلوس فاحتساء
بعض المياه الغازية ، ومراقبة (برنات) وهى تداعب
بسرعة خارقة مفتاحي جهاز حاسوبها الشخصى النقال ..

سألتني وهي تنتظر ظهور البيانات :

- « تقول إنه أصلح للرأس تعامًا .. »

- « وبلا ضارب .. »

- « هذا غريب .. يمكن فهم الشعر لكن الضارب نوع من المبالغة في التكرار تزيد الأمور تعقيدًا .. وهو معرض باستمرار للصقوط في أول طبق حساء مباحن .. »

ثم قلت وهي تبتني على المنضدة (بكلوة) يدها في عصبية:

- « الأمر واضح .. هذا الرجل ضحية إشعاع بدور .. ومن المؤكد أن ما يتعاطاه هو الـ DTPA .. وقد حصل عليه بنفس الطريقة التي نفذها (شيلبي) .. تقول إن العبوات كانت تحمل شعار الـ FDA ؟ »

- « نعم .. »

قلت وهي تواصل الكتابة :

- « إن الـ FDA .. تحتفظ بسجلات الأدوية التي تسمح بها أو تجدها للأشخاص الذين يعانون أمراضًا غير معتادة ..

عام ١٩٨١ لاحظ باحث في الإدارة وهو يراجع الحاسب الآلي ، أن جرعات كثيرة من دواء (بنتاميدين)

قد تم صرفها في العام الماضي في (سان فرانسيسكو) ..
إن العطار يستعمل لعلاج مرض الـ FDA ، وكان من
المعتاد ألا يصرف إلا مرة كل عام أو كل عامين .. دى
هذا جرس إنذار لدى الرجل .. هه ؟ لماذا ظهرت كل
هذه الحالات من الـ PCP في عام واحد في بلد واحد ؟
وبمزيد من التحقيق عرف الطعماء أن هناك مرضاً جديداً
ظهر في (سان فرانسيسكو) ، وهذا المرض بسبب زيادة
الإصابة بطفيل الـ PCP .. وصرعان ما صار اسم للمرض
هو (متلازمة فقدان للمناعة المكتسب) .. الإيدز .. »

هزئت رأسى موافقاً .. أعرف هذا حيث لا توجد
سجلات دقيقة يستطيع الكمبيوتر أن يستنتج كل شيء ..
أفرغت ما بالعلة في جوفى وتجشأت في رقة حتى
لا تصاب (برقاس) بالذعر ..

سألته :

- « هل تتوین إرسال بريد إلكترونى ؟ »

- « كلا .. هذا يستغرق وقتاً ثميناً .. يل سألجأ إلى
المحادثة المفتوحة مع خبير هناك .. وهو سيبحث بنفسه
ويعطينى الإجابة .. »

ودارت المحادثة على الشائبة .. صاد القصص فلم أعد
أسمع سوى قطعة المفاتيح ، وكنت منهكاً بعد هذا اليوم
الطويل الذي بدأ بفزاة الغضاء يقتحمون حجرتي ، وتنتهي
بافتحامي غرفة الرجل .. لهذا شعرت بأن جفوتي تزداد
ثقلًا ، ولم أعد قادرًا على متابعة ما يدور على الشاشة ..

لا بد أن ربع ساعة مر ، أفقت بعده لأجد أنني راقد
على أريكة مريحة ، وثمة غطاء من الكريتون على
ساقبي .. نهضت مذعورًا كأنني ضبظت متلبسًا ، فقالت لي
(برنادت) وهي ما زالت أمام الكمبيوتر على المتضدة :

- « لا تقلق .. استمر في النوم فما زالت المحادثة
مستمرة .. »

لكنني نهضت ورحلت أفرك رأسي كما تفعل الأسود
عند الاستيقاظ ..

بعد دقائق انتهت فأغلقت الاتصال ، وراحت تستعرض
نص المحادثة .. ثم قالت لي وهي تجرع بعض القهوة
(متى صنعها ؟) :

- « يوجد لثان قأما بصرف جرعات عالية جدًا من
حمض الـ DTPA على قدر علم الخبير .. الأول يدعى

(هارولد مكلسمي) وهو عامل أمريكي ، كان يعمل في موقع (هتفورد) قرب (ريتشلاند) (١٤) .. حدث هذا عام ١٩٧٦ .. وكان الرجل يعمل في وحدة خاصة لإنتاج الإمبريسيوم - وهو مادة تفوق البلوتونيوم خمسين مرة قدرة إشعاعية - وعمله يقضى بأن يراقب فصل الإمبريسيوم ، والعمل من وراء زجاج رصاصي سميك محركاً يديه من خلال قنازين ..

« حدث خلل معين في دورة حمض النتريك المسنونة عن فصل الإمبريسيوم من اللرنتج .. وفجأة انفجرت الأنابيب ، وغطت المادة المشعة وحمض النتريك وجه (ماك) .. وامتصت رلتاه كمية إشعاع لم تدخل قط رلتى إنسان من قبل في تاريخ الذرة ..

« قام الفريق الطبي بحمل للرجل إلى حوض من الماء والصلبون ، ومزقوا ثيابه وراحت ممرضة فصله من للزجاج المهشم والدماء والحمض ، ثم نقل إلى غرفة طوارئ الإشعاع .. وكانت مشكلة الحروق التى ملأت وجهه وجلده هينة ، لأنها ستعالج بالطرق التقليدية التى

(★) قصة حقيقية .

يعرفها أى طبيب .. المشكلة الحقيقية هي كميات الإشعاع
التي امتصتها أعضاؤه الداخلية ..

« كانت هذه هي المرة الأولى التي فكر فيها الأطباء
في استخدام مادة (الكالسيوم داي إيثيلين تريأمين بنتا
أسيتيك أسيد) للخلاص من الإمبريوم ، وهي عامل
كلاهي يلتحم بالفلزات الثقيلة ويؤدي إلى إخراجها بسهولة
من الجسم مع البراز أو البول .. وهكذا - بموافقة خاصة
من إدارة الأطعمة والدواء - بدأ الأطباء في إعطائه جرعة
هائلة من هذا العقار ، وأدركوا أن جمده يتخلص من
المادة بكفاءة في البراز والبول ..

« كانت المشكلة التي لم يتوقعها الأطباء هي فقد
الزنك من جسد الرجل بسرعة مخيفة .. إن العقار يخلصه
من الزنك كما يخلصه من الإشعاع ، وهنا فكروا في
استخدام العقار متحدًا بالزنك .. وبالفعل نجحت الفكرة ..

« ظل الأطباء ثلاثة أشهر كاملة يتوقعون كارثة ما ،
لكن لم يصب الرجل بشئ النخاع ولم يمت بالمعدوى ..
واستعادت عيناه إبصارهما بعد عمى طال .. في النهاية
عاد إلى داره لا يحمل من آثار الحلات إلا ندوبها على
وجهه ..

« هذا هو الحادث الموثق بعناية لدى الإدارة .. بعد هذا في عام ١٩٩٧ حدث تسرب مماثل للإمبريسيوم في نفس المفاعل ، وتعرض قتي شاب يدعى .. (مايكل نورتون) لجرعات عالية لكن حالته كانت أفضل ، وقد استجاب بسهولة إلى العلاج بعقار DTPA .. لكن الأطباء وجدوا أنه من الأفضل أن يتعاطى هذا العقار بالفم والفترات أطول قد تصل لثلاثة أعوام .. وقد قلصوا بإمداده به بتصريح من إدارة الطعام والدواء .. للأسف لا توجد سجلات عن الرجل بعد تعافيه من الإشعاع .. يبدو أنه غادر الولايات المتحدة ، وإن كانت الإدارة ترسل له بانتظام ما يحتاج إليه من العقار مخلوطاً بالزنك ، ومن الواضح أن تحمل هذا النوع يكون أسهل .. »

قلت لها في حماس :

- « طبعاً نحن نعرف الآن أنه في الكسميرون ، وأنه يعمل في وحدة (سافاري) .. »

قالت وهي تعيد قراءة المکتوب :

- « نسيت أن أقول لك إن كلا من الرجلين كان يعاني من اضطهاد للمجتمع ، وحالة الذعر التي تقابلهما كلما عرف

للناس قصتهما .. لا أحد يأكل بجوارهما ، ولا أحد
يصالحهما ، الأول كان شيخاً ، أما الثاني فكان شاباً لم
يجد فتاة تقبل الزواج منه .. وتفرض لحظة هنا أنه
عرف الخطر الذي يمثله على أحبائه من ثم قرر أن
يتركهم طواعية «

.. « هذا ادعى لتفسير محاولة (مايك) الهرب بعيداً
عن أى شخص يعرفه .. »

.. « وهذا يفسر الشارب المستعار .. إنه يحاول أن
يبدو بالضبط كما كان قبل الإشعاع .. »

قلت لها مفكراً :

.. « لكن هذا لا يفسر كل شيء .. لماذا أصيب بعضنا
بالإشعاع ولم يصب البعض ؟ إننا جميعاً نتلقى نفس
الجرعة .. »

.. « للناس يتباينون في استجابتهم للإشعاع .. نحن
لا نعرف بالضبط من لمعه (مايك) ومن أكل معه ومن
علقه .. »

للأسف ما زالت القصة ملأى بالثغرات .. تلك الأسئلة

في ذهني تتدافع كالبيض حتى يهشم بعضها بعضا ..
حين أحاول العثور على السؤال لا أجده بسهولة ..
حقاً قد بلغ مني الإرهاق مبلغاً ..

« وداعاً يا أصدقائي ..
من الصعب أن أموت ..
بينما الطيور تغرد في السماء .. »

www.dvd4arab.com
Hany3H
www.dvd4arab.com

١١ - رجل الإمبريسيوه ..

بعد دقائق عشر كنا نهر فرجة الأشجار خارج مسكن الأطباء ، قاصدين تلك الجهة المقابلة التي تصعد منها إلى الإدارة .. لا شيء إلا ظلام الليل وصوت كائناته وأضواء خافتة من بعض كشافات ..

إن (بارتلييه) سيعرف هذا كله ولنسوف يتواثب ويترجرج ، ويصب جام غضبه على رأسى باعتباره مجنوناً ، لكن (برنات) ستفتح الكمبيوتر النقال الخاص بها ، وتعرض عليه المحادثة كاملة .. طبعاً لم أكن أعرف وقتها أن (بارتلييه) مريض متوقع لا تسمح حالته بسماع هذه الأمور ..

قلت لـ (برنات) وأنا أمسك بيدها كي لا تتعثر فى للظلام :

- « يمكن القول إن (مايك) ليس مجرمًا .. إنه مجرد ضحية حاولت للعودة إلى المجتمع .. »

كانت تنهت فى الظلام ربما انفعالاً أو بفعل البرد الذى بدأ يشتد على غير العادة هذه الليلة :

- « كان يومه أن ينثرنا .. إن جرمة كجرم مريض
الترن أو الجذام الذي يندس وسط الأصحاء ، ويشرب من
نفس أكوابهم ، ويستعمل أدوات طعامهم بدعوى أنه
لا يريد أن يشعر بالاختلاف »

ثم بلهجة حكيمة مبالغ فيها أضافت :

- « .. إن حرية المرء تنتهي حين تصطدم بحريات
الآخرين .. من حق المريض أن يعيش حياة طبيعية ، ومن
حق الآخرين أن يعرفوا أنه خطر عليهم .. »

لم أعلق وإن تمنيت التعليق .. أنتم تعرفون ضيقى
الشديد بالمقولات المحفوظة للمسحاة على غرار (القناعة
كنز لا يفنى) .. إنها صحيحة لكن تكرارها قد جعلها
كالعملية التى انتهكها التداول .. لم أعلق لأننا فى اللحظة
ذاتها لمحننا من بين الأشجار نعمة خاطئة .. كنا هناك من
يجرب قداحة لا تعمل ، وشعرت بتيار من الهواء يمر جوار
رأسى .. ثم تطاير بعض الملاط من جدار بجوارى ..

بدا لى هذا ملوثاً ثم فطنت إلى الحقيقة ..

- « هناك من يطلق الرصاص علينا من مدمر كاتم
للصوت !! »

وفي اللحظة ذاتها كنت أجنبها من يدها متجهًا نحو
إحدى الأشجار القريبة .. تواريًا خلفها لاهئين .. لا أدرى
إن كان يطلق الرصاص الآن أم لا ، ولم أعرف حقًا
إلا حين سمعت غصن الشجرة يتهشم ..

هست (برنات) مذعورة :

- « تبا ! إله يعرف ! »

ثم بصقت الفجار الذي وصل إلى قمها لسبب لا تفكره ،
وهست بصوت كالقحيح :

- « إله مجنون تمامًا ! »

- « ولم ؟ إله مهندس كلهم للصوت ، ولن يستطيع
أحد معرفة من فعلها بنا حين يجدون جثتنا .. »
ثم نظرت من وراء كتفى ..

نظرت لسبب لا أتكره .. لكنني وجدت (مالك) واقفًا
هناك والمهندس في يده ، وابتسامة رقيقة حزينة على
شفتيه ! متى دار من حولنا وكيف وجدنا ؟ تلك الأسئلة
لا أملك الإجابة عنها الآن ..

جذبت كم (برنات) لتري ما أراه فأطلقت شهقة
ووثبت للوراء ..

قال (عليك) في لهجة خجول كأنما داس على قدم
سيدة في الحافلة :

- « لو سمحتما لي فبنتي الفضل الكلام في مكان آخر ..
أرجو أن ترافقتني إلى داخل الدغل .. »

كان المهندس في يده بفوهته الطويلة السمامة التي
تذكرك بأفلام الجاسوسية ، وكانت حجته مقنعة جدًا ..
حجة لها صوت الرصاص وسرعته وقوته .. من الواضح
أنه سيفتلتنا هنا لو أرغمناه على هذا ..

وهكذا مشينا في بطم بين الأشجار .. العشب الأسود
الندى يتهشم تحت أقدامنا ، وثمة شعور براونني بأننا لن
نقتل .. إن الأمر كله أقرب إلى نوع من لعبة المساة ..

لا بد أننا مشينا نحو ثلاث دقائق ، حتى وصلنا إلى
موضع خال بين الأشجار الإفريقية .. وهو قريب جدًا
بالمقاييس من الكوخ الذي كان ذلك الألماني يجري
تجارب التجميد فيه .. لقد صار الكوخ الآن بقايا متفحمة
لكن نكرياته لم تمت بعد ..

سمعت صوته يقول في الظلام :

- « توقفنا .. »



لا بد أننا مشينا نحو ثلاث دقائق ، حتى وصلنا إلى موضع
خال بين الأشجار الإفريقية ..

لمسكت بكف (برنات) الباردة وتوقفت دون أن
تنظر إلى الوراء .. لن يطلق الرصاص .. لن يفعل ..

شاك ! كان هذا صوت هود من الثقب يحثك بالعطية
ثم شمعت رائحة التبغ .. استكرت للوراء لأجده يشعل
الحافة تبغ وقد استند إلى جذع شجرة غليظ .. وفي ضوء
الذهب كان وجهه خلتاً من المشاعر .. لا يظهر كرهاً أو
سروراً .. ثم لتطفاً الهود ومعه ثلاثى وجهه فى الظلام
من جديد ..

قال لى كلما يكلم نفسه :

- « لا مفر من أن ينكشف كل شيء فى النهاية ..
ما كان السر لبقى سرّاً أكثر من هذا .. »

ثم أضاف وهو ينفث البخان فى الهواء :

- « كنت ضربتك قوية لكنى بالطبع استطعت رؤية
وجهك فى المرآة .. وحين أفقت استطعت أن أرى ما كنت
تبحث عنه بالضبط وما وجنته .. بعدها بحثت عنك كثيراً
فلم أجد لك أثراً .. كنت أعرف أن الخطوة التالية هى
إبلاغ المدير ، لذا وقفت هنا لأقطع الطريق إلى مكتبه ،
ولأرى كل من يحاول الوصول إلى هناك .. ثم أحلم حين

لشتريت هذا المسدس من مفامر ألماني هنا أننى سأستعمله
يومًا ما .. كنت أحسب أن المسدس ضرورى لإهريقها
كما أن الزلاجات ضرورية لسويسرا »

ثم مسح وجهه بكفه فى حيرة كأنما هو فى ورطة
عنيقة وقال :

— « الآن ماذا أفعل بكما ؟ أنت ممن يحبون القتل ،
لكننى قد صرت فى موقف لا يسمح لى بالاختيار .. إما أنا
أو أنتما .. »

قلت له وقد ازداد يقينى بأنه لن يمينا بسوء :
— « دعنى أعطك حلاً لا بأس به .. تركنا وسنظل
صامتين .. »

ضحك كثيرًا حتى خنقه السعال ، وأدركت أن اتزانته
النفسى ليس على ما يرام .. فى الغالب هو تحت تأثير
مشروب أو مخدر ما .. هؤلاء يضحكون ويكون فى نفس
الوقت حتى لتعجز عن فهم ماذا يفعلون بالضبط ..

— « هيب هيب ! طيفا .. طيفا .. ما من ضريبة على
الوعود ، وهذا هو وقت بذلها بسخاء .. هيب هيب !
الأمريكى الأحمق الثمل — بل والمشع كذلك — يمكن خداعه
بسهولة .. هيب هيب .. »

ثم توتر كما توقعت وقال بصوت كالفحيح :

« أنتما لا تعرفان كم من تدابير اتخذتها لأعيش هنا مجهولاً لا يعامله الناس كجريمة الطاعون .. لقد كنت أشع كمفاعل صغير ، وكانت إبرة العدادات تقفز كلما مررت بجوارها .. توقع الأطباء أن أموت من يوم لآخر ، ولكنني ظلت حياً بمعجزة ما .. لا أحد يفهم كيف ظلت حياً بكل هذه الرادات المشعة داخلني .. فقط سقط شعر رأسي وشاربي كما فقدت للأبد أن أكون أباً ..

« بعد أشهر عدة بدعوا يتكلمون عن تحسن حالتي وعن إمكانية مغادرتي للمستشفى ، لكن شيئاً لم يعد كما كان .. وعرفت بسهولة أنني خطر داهم على البشرية .. تأكدت من هذا يوم هلك كلبى المدلل ، ويوم راح عدد (جايجر) يعوى بجنون حين وقفت جواره .. للحمقى لم يعرفوا لكنى عرفت بسهولة .. وقررت أن أجرب حظي في مكان لا يعرفني ، عسى أن تزول لعنة الإشعاع التي تلاحقني ..

« هربت من حصار الأطباء لي ، وقررت إلى هنا لأن (سافاري) كانت بحاجة إلى فنيين .. مؤهلات مزورة بالطبع .. كان كل شيء يمضي كما رسمت له ، وقدرت أنه خلال خمسة أعوام سأكون قد تخلصت تماماً من بقايا

الإشعاع .. ثم بدأت الوفيات .. وبدأ كل شيء يموت حين
لتعامل معه .. إبنى الرجل للزرى .. رجل الإمبريسيوم الذى
يتبعه للموت فى كل خطوة .. لا أحد يعرف هذا غيركما ..
ثم ترنج قليلاً وقال :

« من السهل الآن أن أكتكما وأترككما هنا .. مستمر
أيام حتى يجد جثتكما أحد ، وعندها لن يعرف أحد من
فعلها أبداً .. لا أدرى ما سيحدث لوحدة (سافارى) غذا ،
لكننى أرجح أن التصيب سيدوم لولماً ثم ينتهى .. سيقومون
بتفتيش المكان مراراً ، وفى كل مرة سيعلنون أنه نظيف .
وفى للنهاية ستعود (سافارى) إلى ما كانت عليه .. »
هنا - للغرابية - سألته (برنات) سؤالاً عجيباً بعض
لشيء :

« لماذا تجمع برازك وتتخلص منه فى القبو ؟ »
كان هذا آخر سؤال يمكن أن تسأله فتاة قد تتلقى طلقاً
فى رأسها بعد قليل .. لكننى فهمت أنها مثلى لا تتوقع
حدوث شيء مخيف .. فى الغالب سينهار هذا القتي
وينقى بالمسدس على الأرض ..

ضحك (مايك) كثيراً حتى عاوده السعال .. ثم قال :

- « هي هي هي اكلا .. ليست هذه مجرد عادة
قذرة .. لقد طلب منى الأطباء في الولايات أن أرسل لهم
عينات أسبوعية من فضلاتي كي يقوموا ما بها من
(امريسيوم) من حين لآخر .. كان من الصير الاحتفاظ
بهذه العينات في غرفتي طبعاً ، لذا أخفيتُها في القبو ..
لم أجد قط الفرصة لإرسال هذه الصفحة القريبة لأن
الفران وجنت الأكياس ومزقتها .. »

- « وراحت تواصل مهمة نشر الإشعاعات في
(سافاري) .. »

- « بالضبط .. قبل أن تموت من التلوث طبعاً .. »
ثم ألقى بقايا السيجارة ، ومسح فيه .. وقال وهو
يرفع المصعد :

- « الآن يمكن أن ننهي من هذا .. أرجو أن تقفوا
وتوليا وجهكما شطر هذه الشجرة .. »

إنه لا يمزح إذن .. هو لا يعلم حين ما يقطعه ..
قلت له بلهجة مفعمة بالكياسة والتعقل :

- « فكر يا (مايك) .. أنت لست قتلأ .. أنت مجرد
ضحية .. »

.. « بل أنا صفاح حقيقى .. لقد قُلت كثيرين بالإشعاع ،
فماذا سيحدث لو قُلت اثنين فقط بالرصاص على سبيل
التجديد ، وحتى تستقيم حياتى من جديد ؟ هذا لن يجعل
جرائمى أكثر بشاعة .. »

كلام منطقى طبعاً ولا يستطيع إلا أن أوافق عليه ..
كان عقلى يحاول للبحث عن مخرج .. لو هاجمته الآن
كما يحدث فى القصص ، فلن أجد الوقت الكافى .. إنه
على مسافة مأمونة .. ويقتضى إلى حد ما ..

لا أرى كيف ولا متى وجدنا أننا نتصاع لأوامره ..
أدركنا له ظهرينا وتلمسنا الشجرة فى نوع من انعدام
الوزن الشديد .. قلت لها همماً :

.. « لن يفعل .. أؤكد لك أنه لن يفعل .. »

.. « لا تراهن على ذلك .. »

عدت أهمس بكلام كثير حين تعالى صوت (مالك)
للمتحسرج شبه المجنون يقول :

.. « والآن .. سأطلق الرصاصة الأولى على أكثر
واحد أمفته هنا .. إن الرصاصة الأولى ستجعل مستقبل
البشرية أفضل والعالم أنظف ! انتباه ! »

ونوى صوتك لـ (يوف) للمميز للمعديحات للصمّة ..
صوت مدادة الزجاجة التي تنتزع ..

في نفس اللحظة نظرت ملهوفاً إلى (برنات) فوجنتها
ملهوفة تنظر لي .. كلاًنا وجد أنه لم يمت .. لهذا حسب كل
منا أن الآخر هو الأول .. رائحة البارود تملأ المكان ..
ونظرت إلى الوراء لأجد ما توقعت ..

(مايك) على الأرض ، وقد سقط شعره المستعار ،
والدم يتز كالنهر من ثقب في صدغه ..

★ ★ ★

« وداغاً يا أبى أرجوك صلّ من أجلى ..
لقد كنت لنا وصمة عار الأسرة ..
حاولت أن تعلمنى الصواب من الخطأ ..
خمر كثيرة .. غناء كثير ..
بدهشنى كيف تعاملت مع الحياة .. »

★ ★ ★

الخاتمة ..

« ليس من المعتاد أن تكون هناك خاتمة في (سافاري) ، لكن وجودها لن يؤذي أحدًا على كل حال »
قال (بارتلييه) وهو يتفقد حجرة (ملك) التي صارت الآن كلها هول لا سر له ..

.. « غريب .. غريب .. لكن كل شيء يؤكد أن القصة صحيحة .. وقد قمنا بدفن جثته في قبر خرمساتي لا يسمح بتسرب شيء .. إن أحدًا من أقاربه في الولايات لم يطالب بالجثة .. »

ثم أضاف وهو يلوح بذراعيه المكتنزتين :

.. « الآن كل شيء نظيف في (سافاري) وقد تخلصنا من هذا .. »

ثم نظر لي وعلني :

.. « كيف عرفت أنه لن يقتلكما ؟ »

قلت في لهجة من يقول شيئًا مفروغا منه :

- « لقد احترقت سفينة كلها يا صيدى .. صار جوادًا
خاسرًا .. وما كان قتلنا ليؤجل اكتشاف الحقيقة إلا بضعة
أيام .. لقد تأمل موقفه لدقيقة ثم وجد أن الهدف الصحيح
الذى يجب تصويب الرصاصة إليه هو صدغه .. لقد كان
هذا الغنى أحوج إنسان إلى جزيرة خالية من البشر ..
هناك ربما استطاع أن يبدأ من جديد .. »

- « لقد فر إلى الكامبيون لهدف كهذا .. لكنه اكتشف
سريعًا أن العالم أكثر ازدهارًا مما كان يظن .. »

علقت (برنات) بدورها :

.. « كان من حسن حظه انتشار إشاعة الطبق للطلار
المرعوم هذه .. لقد جعل هذا تفكير الجميع ينحصر في زاوية
واحدة .. وضاع وقت ثمين في بحوث لا طائل من ورائها .. »

- « يبدو أن أوبلة الحضارة - ومنها الخيل الواسع -
قد تمزقت إلى مجتمع (أنجوانديري) البكر .. »

خرج (بارتلييه) من الحجرة ، فهمست (برنات)
في أنفى بمكر لعوب :

- « برغم كل شيء » اعتقد أنك كنت وثقًا من أنه
سيقتلنا .. »

- « لماذا ؟ »

قالت وهي تغادر الحجرة :

- « الكلمات الأخيرة التي همستها في أذني قبل قطاع
الرصاصة .. لقد كانت صالحة بالتأكيد قادمة من قلوب روحك !
إن المحتضرين لا يجدون البال الرائق كي يقولوا سخطاً »
قلت بصوت عال :

- « ولربما كان الهلع قد جعلني أخرف ! »

لكنها في الغالب لم تسمع هذه العبارة الأخيرة ..

سلمى لماذا تفكرين ؟ سلمى لماذا تحلمين ؟

(حتى لو كانت الكاف غير مشددة)

قالت (حكمة) وهي ترمق الليل البهيم بالخارج :

- « إن هؤلاء القوم من (سافاري) لم يصدقوا حرفاً

مما قلناه ولم يعودوا يا (ماتانجا) .. »

قال (ماتانجا) وهو ينظر إلى حيث تنظر ، وقد بدأ

الضوء الأحمر يتشكل على ملامح وجهها :

- « إتهم بيض يا (حكمة) .. والبيض لا يصدقون السود
أبدًا .. إتهم بعاملوننا كقروء هبطت فورًا من فوق الأشجار ،
ثم إننا فقراء .. والعالم لا يعطى لأنه إلا للأثرياء .. »

ثم إنه بحث عن البندقية القديمة فأمسك بها ، وأحكم
غلق القميص الرث على كرشه الصلوق .. فالليل بارد
ولم يعد المشى بالقائلة الداخلية محببًا ..

سألته في قلق :

- « هل ستحاول التفاهم معهم ؟ »

قال في سخرية :

- « وهل سيفهمون ؟ إتنى فقط أريد أن يعلموا إتنى
الرئيس هنا .. »

- « كن حذرًا .. إننا تحت رحمتهم .. »

قال وهو يفتح باب الكوخ :

- « لن أبداً بشيء .. لكنى سأطلق الكثير من هذه
البندقية العجوز لو ارتبت في شيء .. إن البندقية العجوز
ما زال لديها ما تقول .. »

وخارج الكوخ كان الرجال واقفين ينظرون في رهبة ..
سرهم بعض الشيء أن (ملتاجا) هنا هذه المرة ، وأنه

سيصرف .. إن (ماتجا) العجوز البدين يعرف ما ينبغي عمله ..

اتسع بياض عينيه في الظلام وبحزم نظر للرجال ، ثم أمرهم :

« اتبعوني .. »

تبادلوا النظرات الصامتة ثم مشوا خلفه ..

مشوا خلفه في ثورة نحو الجسم العملاق الجاثم في الغابة ، والذي يشع أنوارا حمراء وصفراء ، والذي بدا بابه يفتح الآن ..

ماذا سيحدث بعد هذا ؟ كنت أتمنى الإجابة .. لكننا لانجيب عن أسئلة كهذه في وحدة (سافاري) .

د. علاء عبد العظيم

تجاوزاتديري

[تمت بحمد الله]

www.dvd4arab.com

المطبعة العربية الحديثة

www.dvd4arab.com

سافاري

مغامرة طيب ستان وحافظ
لكن يمكن جدا وكفى يمكن طيب

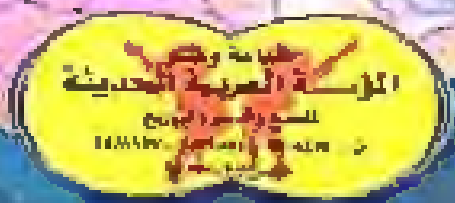
روايات
مصرية
الحبيب



د. احمد خالد تولى

!!!! ؟؟؟

www.dvd4arab.com
Hany3H



العدد القادم
الدواء الذي يقتل

الثقافة في مصر ٢٠٠٠
مكتبة التراث العربي
من سائر العالم